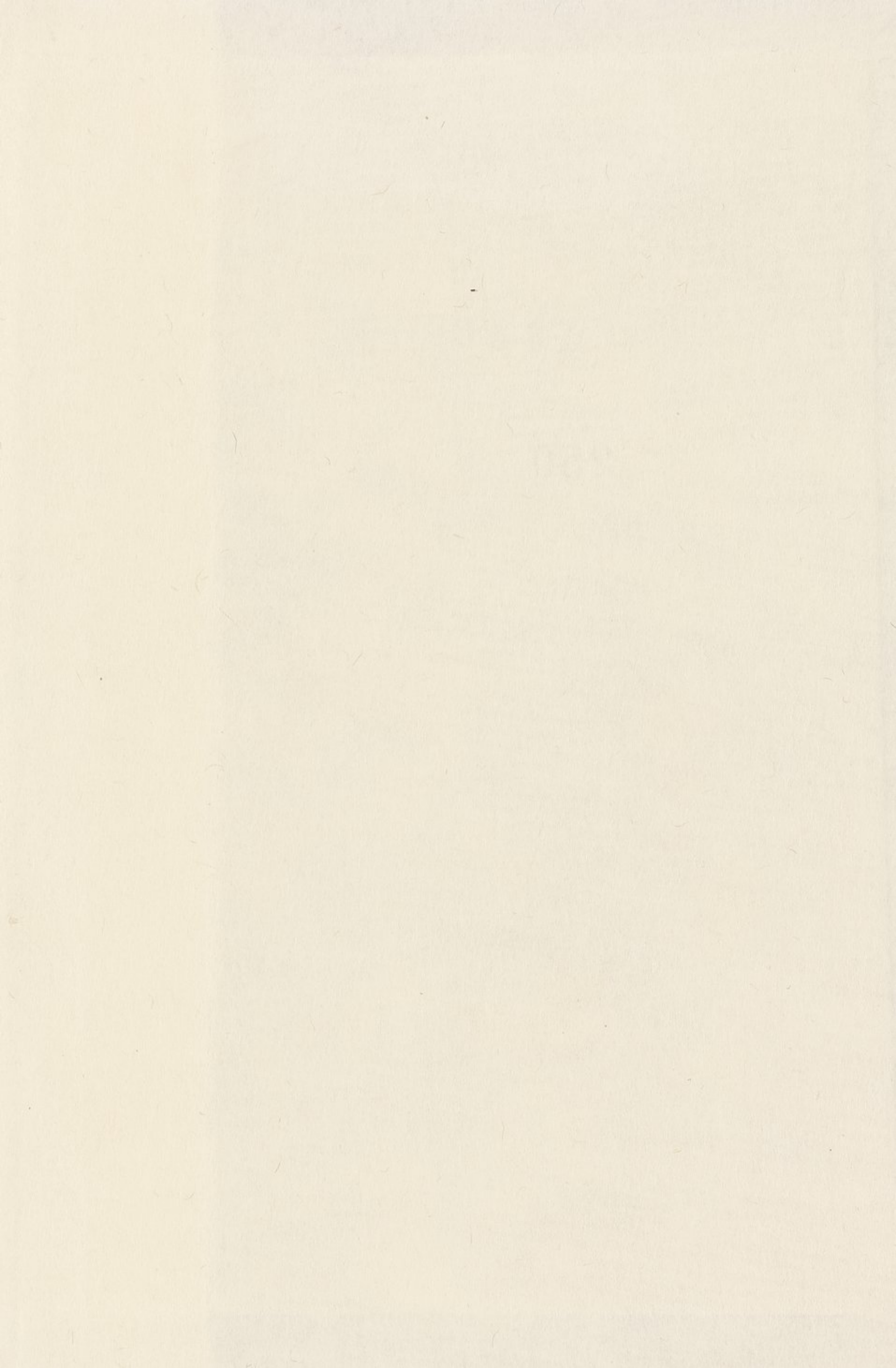
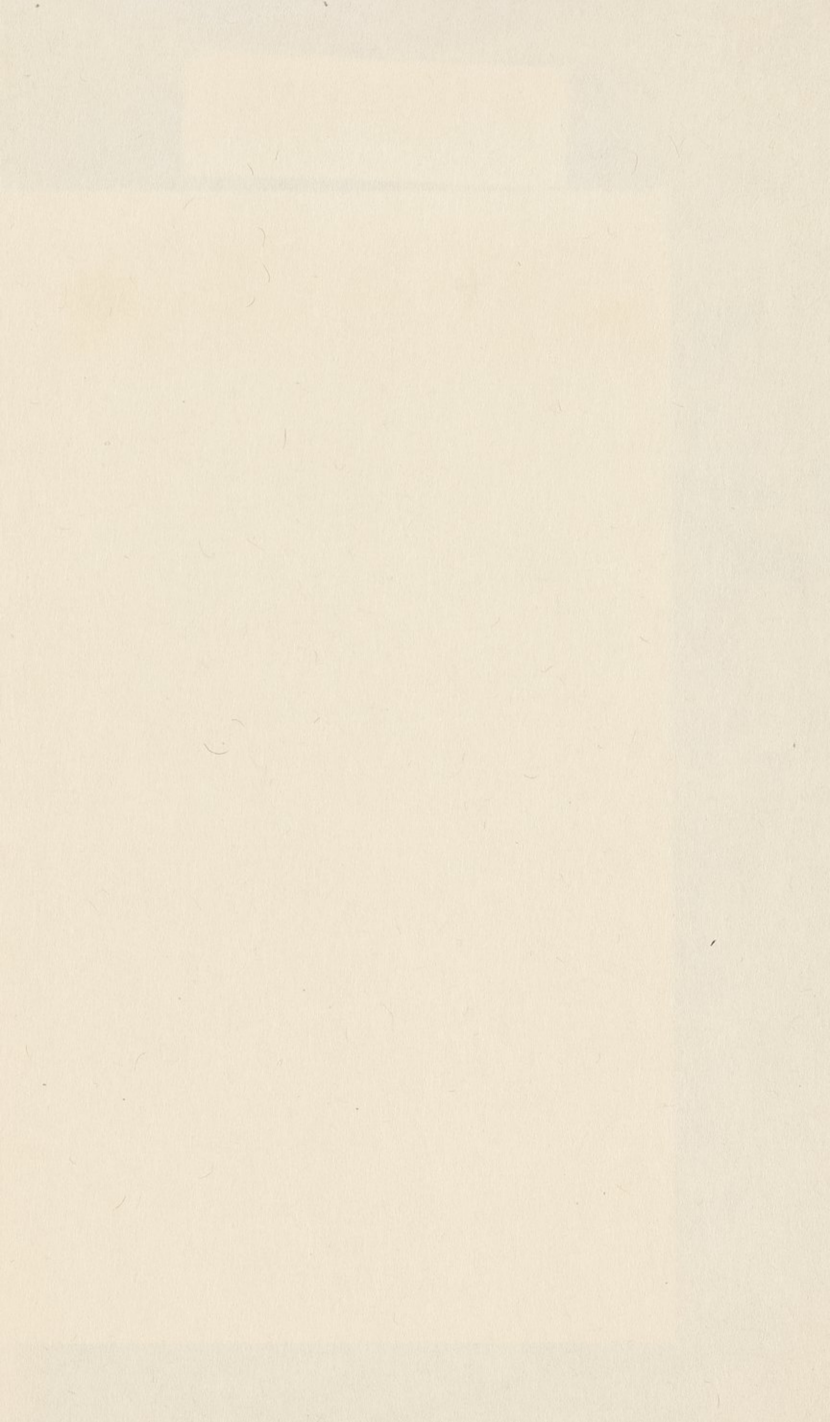
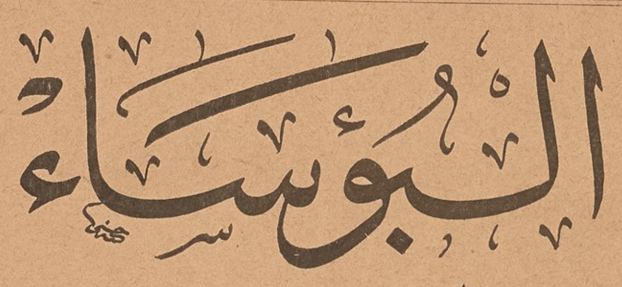





Princeton University Library
32101 054943087



قررت وزارة المعارف مطالعة هذا الكتاب فى مدارسها الثانوية والعليا سنة ١٩٢٢



البؤساء

لفيكتور هوجو

تعريب

محمد حافظ ابراهيم

الجزء الثانى

طبع بنفقة ابرهيم زيدان بتصريح من المعرب

١٣٤١ — ١٩٢٣

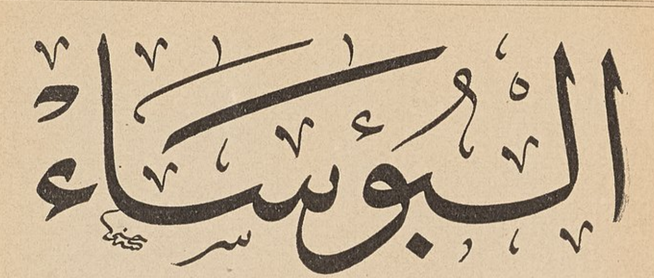
يطلب من مكتبة الهلال بالفجالة بمصر

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥



قررت وزارة المعارف مطالعة هذا الكتاب فى مدارسها الثانوية والعليا سنة ١٩٢٢



البؤساء

لفيكتور هوجو

تعريب

محمد حافظ ابراهيم

الجزء الثانى

« الطبعة الثانية — حقوق الطبع محفوظة »

طبع بنفقة ابرهيم زيدان بتصريح من المعرب

١٣٤١ — ١٩٢٣

يطلب من مكتبة الهلال بالفجالة بمصر

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥



عاصفة تحت جمجمة

أو

« فَوْرَةٌ »

قدّمنا بين يدي القارئ ما كان من أمر (چان ڤالچان) منذ ابتذّ ذلك الغلام قطعته الفضيّة ، وقد رأى كيف حالَ[1] هذا الرجلُ إلى رجل آخر وكيف فعلت فى نفسه كلماتُ العابد أفاعيلها فاختطفته إلى المعبود . وأخرجته من مِسْلاخ[2] الشّرَّة[3] والضغينة وأسكنته فى إهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر وثنّى ببيع تلك الآنية الفضيَّة ولم يُبق منها على غير الشّمعدانين[4] ولعله أبقى عليهما ذِكْرة لذلك الصّنيع

وجعل ينسلُّ فى سِرّ[5] من الناس من قرية إلى قرية

---

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسى معرب (٥) أي خفاء

حتى مسح أرضَ فرنسا ودوّخ بها كلّ مكان وألقى عصاهُ بقرية (منتراى سيرمير) وأدرّ الله له أخلاف[1] الرزق فأثرى ، ثم مكّنَ لنفسه حتى جعلها بمَنْجاة من المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير . فكان كلما بَضَعَ[2] الندمُ على ماضيه من فؤاده بَضْعَةً شعرَ فى نفسه بِوَفْرِ تلك السعادة . ولقد تكفلتْ حسناتُ الشطر الثانى من حياته بغسل حَوْبَاتِ[3] الشطر الاول

وكان رأسه مُضْطرَباً لِفكرتين لاثالثةَ لهما : أن يُخفىَ اُسمه وأن يقِفَ حياته على الفِرار من المخلوق والرجوع إلى الخالق . وقد اُمتزجت هاتان الفكرتان بعقله اُمتزاجا حتى حالتا إلى شىء واحد ، أصبح له السلطانُ المُطلَقُ على إرادته فاُستقرّتا فى قَرارةِ نفسهِ وتناولتا ماوراء وجْدَانه ،

---

(١) الثدى للمرأة والأطباء للكلبة والأخلاف للناقة (٢) قطع (٣) الحوبة الذنب

فهما اللتان دعتاهُ الى الانزواء فلبى وإلى البرّ فمضى وإلى التقشُّف فأطاع

وتمرُّ به لمحاتٌ يقع فيها بينهما العِراك فتدفعه الأولى الى أمر وتثنيه الثانيةَ عنه ولكنّهُ ما كان يُحجمُ لمحة عن إيثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وإن جرّت الى هتك ستره ، على طُمأنينة نفسه وثلوج صدره في اُختفاء أمره

ألم ترَ اليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) (وچافيرُ) يلقِى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه وكيف لَبِسَ الحداد على العابد وإن طارت حوله في ذلك الشبهات فقد قام بنفسه أنّ أوّل فرض عليه إنما يجب القيامُ به لغير شخصه

على أنه لم يَشهَدْ مشهداً لهذا العِراك كان أشدَّ هوْلا وأعظم مراساً من ذلك الذى مرّ به حين دخل عليه (چافير) ولَفَظَ أمامه ذلك الاسمَ الذى دَرَجَ في أثناء النّسيان فاضطربت له نفسهُ من داخل الجسد واستخذى عند سماعه

وعجب لذلك الجَدّ الذى لا يفارقه العِثار ، وهجم عليه أمْرٌ لا قِبَل له به ، فمرت به تلك الهَزّات التى تؤْذِنُ بِفَوْرَةِ النفسِ ، فانحنى انحناء الدَّوْحة تُدَانيها العاصفة أو الجندىّ يَتَهَيّأُ للاقتحام

وهمّ وهو ينصت لـ (چاڤير) أن يطرح رداء التنكر ويطير الى ذلك السجن الذى أودعوه (چان ماتيو) فيقتلعهُ منه ويَحُلَّ محلّهُ ولكنه لم يلبث أن عاودته الأَثَرَةُ فأكبر هذه النزعةَ النبيلة وتراجع أمام تلك البُطولة

ولو كان ممّن تزكو [1] عنده العوارفُ لَزَكَتْ عنده عارفة العابد ، ولَغيرتْ منه تلك السنون التي طواها بين الزهد والتّوبة ، ولغبر يمشى قدُماً بقدم مطمَئّنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها قد أُلْقيت مفاتيح الجنة التى كان يَنشُدُها

نعم كان الأخْلَقُ به أن يكون ذلك الرجلَ ولكنه لم يَكُنْهُ وإليك ما كان يجول فى نواحى نفسه

---

(١) زكت العارفة أي أثمر الجميل

غمرَه عند الوهلة الأُولى شعورُ المحافظة على النفس ،
فخفّض من جزعه وتصامّ عن نداء ضميره وأهاب [1] بحلمه
حتى اذا ثاب اليه أضمر فى نفسه وهو ينظر الى (چاڤير)
أن يتلوّم [2] بعض التلوّم في الحكم على مصيره

ولبث سَراةَ [3] يومه وعلى ظاهره من السكون طِلاء
وفى باطنه من الجزع صِلاء فلم يفكر فى ذات غيبه [4] ولا
فى الأخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادى . ولا
بِدْع فقد تخوَّنه الحزم وقرَعه (جاڤير) بقارعة أطارتْ
صوابَهُ وزلزلتْ أركانَ نفسه وكان مبلغُ علمه بحالته أنه
أصبح تحت كَلْكَلِ كارثةٍ لا يدرى متى تفلِته

انكفأ الى حجرَة (فانتين) يعودُها وجلس على مقربة
من فراش آلامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نِيّة سفر
لا يعرف أمَده . على أنها نِيّة مُبْهَمَة لم يضرب فيها رأيا ولم
يستشر عزما ، فقد مرّت به الفِكر أبابيل [5] وهو لفرط
خَباله لا يكاد يميز بين صُوَرها

(١) صاح (٢) يتأنى (٣) طول (٤) ذات الغيب أى المستقبل (٥) جماعات

وما أدرى أكانت به نَفْسُهُ أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النُّزُل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى ألاَّ أرِيمَ [1] مكانى فأرقب مواقعَ القضاء فى هذا الحادث وأنا وادعٌ لا تسمو إليَّ الخطوبُ ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسستُ الشرَّ ركِبْت عليها النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه إصابة مقدَّرة

ثم دخل مَخْدَعَهُ وهو مذهُوبٌ به ، فخلا إلى نفسه وأنعم التفكيرَ وجعل يقلّب وجوه الرأي فتعاظمهُ الأمرُ وأُخِذَتْ عليه أفواهُ السُبل وسُدَّت مسارحُ النجاة

ساورتهُ المخاوفُ وفاعتْهُ [2] الأوهام ، فقام الى الباب فاستوثق منه وإلى المزلاج فأثبته حتى ظن أنه فى مأمن من الطارق والطارئ ، ثم أقام خلفه المتاريس طلباً للمزيد فى الأمن وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور

---

(١) أبرح (٢) فعلت فعل الافعى

ثم قال فى نفسه ألا أزال مَرْئياً (عن أى عين يا تُرى كان يريد أن يتوارى)؟

ياوَيله إن ذلك الذى كان يَجِدُّ فى الفِرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويَستنجدُ بالظلام مازال معه فى حجرة واحدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خُدْعة نفسه حين ظنَّ أنه كان فى عُزلة وأمن، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين مايخشى

فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جَمِيعَ الفؤاد ثم عَصَبَ رأسه بيديه واعتمد بمرفقيه عَلى مِنضدة كَانت أمامه وأنشأ يحدث نفسه

أين أنا؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه؟ تُرى هل كذَبتنى العينُ حين رأت (چاڤير)؟ وهل خاننى السمعُ حين أفرغَ فيه اسم ذلك الرجل؟ (جان متيو) أتُراه يشبهنى الى حدٍّ أنْ أخذوه بى، فويل لى. لقد كنت بالأَمس آمناً

فى سِربى وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجلهُ

فانظر على أىّ سيّال من الألم قد بات يتململ هذا البائِسُ الذى ضاق محيط عقله عن جوَلات تلك الأفكار التى تدافعت فى رأسه كالأمواج حتى انه ليُدَافعها عنه بالأيدين وكان يحاول أن ينتزع من كلّ أُولئك يقيناً يَجِدُ له بَرْداً على قلبه ولكنه لم ينتزع غيرَ الحَيْرةِ والمضض

وكاد يلتهبُ رأسهُ فقام (الى النافذة ففتحها ونظر الى) السماء فإِذا بها ضريرة النجم [(١)] ساقطة النواحى [(٢)] فعاد وارتمى على مقعده

ومرَّ به قطعٌ من الليل وهو على تلك الحال ثم أطافتْ برأسه صُوَر مبهمةٌ أخذت تتجمع وتتبَيَّن حتى لَفَتَتْ اليها تأملَهُ فلمحها بعين الحقيقة لمحة أَلَمّتْ ببعض أطرافها فعاد الى نفسه بعضَ الشئ وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل اليها انما هى من صُنع يده — حالٌ حقيقة باللوم لا يلابسها المرِئ [(٣)] ولا يستقر عليها العَيُوفُ

---

(١) يحجبها السحاب (٢) شديد الظلمة (٣) ذو المروءة

ومن نظر في أمر هذا البائس وقر فى نفسه أنه علي زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيأً مذكوراً اللهم إلا ذلك الثقبَ الذى ثقبه ووأد فيه اسمه ووَدّ لو نسجت عليه الايام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاعٌ من الذكرى

فكان اذا خطر له أن سيأتي يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكرٌ نسف ذلك الخاطر نفسه في نهاره ونزفَ أنفاسه فى ليله وأغرى به سُهاداً تقِضُّ (١) عليه معه المضاجع وتطارحُه الوساوس . ولطالما كان يقول لنفسه إن هذا اليوم اذا أوفى عليه ليذهبنّ بما يحيط به من راحة ونعيم حتى إنه ليُشفِقُ أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربّها (٢) بالتقوى وتعهدها بالاحسان

نعم لقد غمر هذا الفكرُ شعوره وشغل أرجاء نفسه فلو أن قائلا قال له إن هذا اليوم لا بُدَّ آتٍ وإن تلك الكلمة (چان ڤالچان) لا بد أن تثِبَ من مكمنها وتترا آى أمامك فى هيكل نوراني يهتك ستار الظلمة الذي أسدلته على

---

(١) تمتلئ عليه قضا وقضيضا أى حصى (٢) ربها وربّاها بمعني

نفسك فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئِسْ به ، فلن يَضيرَكَ أن تَسمع ذلك الاسم فانه سيرفعُ منك ولا يَهولنّكَ أن ترى ذلك النور فانه سيزيد فى الظُّلمة التي تنشُدُها ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون أكتمَ لِسرّك ولا ذلك الزلزال المروّع فانه سيصبح أدعَم لبنائك فاكْشِف عن حياتك تَبلغْ مناك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (چان ڤالچان) وقفة تخرج منها أنبلَ نفساً وأنبهَ ذكراً وأجمل أمراً

لو أن قائلا قال له ذلك لنأى عنه بجانبه ولظن أنه يعالج المستحيل . على أن الذى كان يظنه داخلا فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الإمكان وجرت به الأقدارُ فوقع

أخذ حُلمهُ يتكشّف روَيداً رُويداً وأخذ هو يزداد علماً بحقيقة أمره

خُيِّلَ إليه أنه قد أفاق من خَفْقَةٍ — وما أدرى من أى خفقة أفاق — وأنه قد رأى نفسه ينزلق فى جوف الليل علَى منحدر قد وقف به على حِفافِ (١) هاوية ، وأنه

(١) أى حافة

قد حاول أن ينحرف عنها فأثبته الخوفُ وقيَّدَه الوهم . وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خَلْقاً [١] أراد أن يتبيَّنه فتنكرت له معارفهُ حتى أنكره ، فأُلقيَ في رُوعه أنَّ الأَقدار قد شُبِّهَ لها ذلك الخَلْقُ فظنته (چان ڤالچان) فأخذته به وساقته ظلماً إلى تلك الهاوية التى لم يكن لها بُدٌّ من أحد رجلين إما هو وإما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الأَقدار تجرى على أذلالها [٢]

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأَ يصارح نفسه ويقول إن مكانى فى السجن لايزال بحمد الله خاليا يُطالعنى منذ ذهبت بِورَقَةِ ذلك الغلام ، وإنى لأَشعر كأَنَّ قوةً باطِنَةً تسوقنى إليه فهو مُدْركى وإن أَمْعَنْتُ فى الهرب ولَشَدَّ ما يُرمِضُنى [٣] أن يقيموا فيه بديلا منى ، وإن هو إلا عاثر قد رَمى به نحس طالعه فى أيديهم فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمناً فى سربى فأنا مقيم هناك فى لباس (چان ماتيو) وأنا مقيم هنا فى لباس (مادلين) ولكن أيَسَعُنى

(١) مخلوقا (٢) أعني تجرى فى أعنتها (٣) يقضى على الرمضاء

فى مُرُوءتى أن أترك هذا البائس يُدْفَنُ فى السجن كما تدفن التوابيتُ دفناً لاقيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار أم كيف يجملُ بى أن أتَدَلَّى هنا فى النّعَم وهو يتدلّى هناك فى النِّقَم

وعلى أثر ذلك تحركَت نفسهُ حركة يقعد عنها الوصفُ حركةً لاتمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات

فقد اختلجت سريرتهُ اختلاجا بعَثَ ما كان كامناً فى فؤاده من الهواجس . وقَعَ ذلك على أثر مزيج قد جُمعَ فى نفسه من الفرَح واليأس والازدراء . تلك هى إحدى ضَحِكاتِ السرائر

قام بعد ذلك إلى المصباح فأَضاءه من جديد وطرح عن مَنكبَيهِ رداء الفزع فلما سكت عنه الروع قال لنفسه مالى أرانى على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه وكنت أفرَقُ(١) من طريق واحد طالما قَدَّرت أن تَدْهَمَنِى منه الدواهى ولكنه قد سُدَّ بحمد الله فأصبح (چافير)

---

(١) أخاف

لا يجد إلىّ سبيلا وأصبحتُ فى مأمنٍ من شر ذلك الرجل الذى رُكّبَتْ فيه غريزة كلبِ الصيد فكم وَقَفَتهُ على أثري حتى كَاد يكشف عن أمرى — على أنها قد خانته هذه المرة فجرّته على أثر غيرى فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى وليدعني أستَرْوِح روائح الأمن فقد طال عهدى بها وليقبض على (چان ڤالچانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولا فحسبي ما كَابدت من ألمٍ وعانيت من جزع فلو أن رائيًا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالإفاقه من سقم أو بالإفلات من براثن حادث

وإذا تأنقت الأقدار فى مكروه ذلك الإنسان فتلك مشيئتها وأنّى للمرء أن يدفع القدر عن غيره إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه وإنّى لا أرى مُبررًا لما كنت فيه من الجزع فان الأمل الذى كنت أتنسمه طِوال السنين والشيء الذى كَان يملأ علىّ أحلامى قد ظفرتُ به ، ذلك هو الأَمن وهو بغيتى فمالى أشكر لله على تلك النعمة فلعله قد

ارتاح (١) لى وتقبل منى وأراد أن أجرى فى طريق فقد أخذتُ نفسى بصحبة الفضيلة ورددتها الى التقى حتى قرّت ورُضتها على البرّ حتى سكنت فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضتُ إليه جملةَ ما مرّ بى فأفرغ فى اذنى كلمات وعيتها حتى الموت فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله — صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجانُ سريرته وبعد أن كاد يستلّ خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكّر

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وماشاع فى نفسه سرور ولا قرّ له قرار كما كاد يتوقع أن يكون . وما هى إلا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يردّ البحر عن العود إلى شاطئه ، استطاع أن يردّ الفكر عن العود الى مناطه . وعلّة البحر فى ذلك يعرفها الملاّح وهى المدّ والجزر .

---

(١) أى غفر لى

وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم . فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط .

نعم عاد إلى ما كان فيه من حِوار نفسه فكان هو المُناجى . وكان هو المُصغى . وكم حاول ألاّ يكونهما . ولكنّ قوّة باطنة ساقته سوقا وألحّت عليه بوحيها : أن فكّرْ فى ذلك الذى سيق إلى الموت قبل اليوم بألفى سنة

وقبل أن نجرى بك شوطاً بعيداً أيُّها القارئ ، يجمل بك أن تصبر قليلا على الإسهاب فى أمر لم نر بدًّا من بسطه — من المألوف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يَطْعَم (١) تلك المناجاة — وإنها السر من أجمل الأسرار وأخفاها . ينتقل فيها الحديث من الفكر إلى السريرة ثم ترده السريرة إلى الفكر . فاذا علمت هذا حلالك أن تفهم الأُسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا — ثم قال — ثم صاح — قال لنفسه — كلم

(١) يذوق

نفسه — صاح فى باطنه — وصيحة الباطن لا تقطع سكوتَ الظاهر ، فقد تقع ضجةٌ فى الباطن يتناول الكلامَ فيها كلُّ ما فى الجسم من عضو وجانحة غيرُ الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وإن لم يقع عليها الحس أو يدركها اللمس

تساءل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذى اُعتزمه ؟ فأقرَّ فى نفسه أن كل ما أصر عليه إنما هو باطل وأن الاُستسلام للقدر فى هذا الموطن لَمنْ إحدى الكُبَرِ وكَبُرَ عليه أن يدع ذلك القدر فى وهمه ، وأُولئك الناسَ فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمُدَ عن الحق وهُمْ فى البُطْلِ يتدفقون . ورسخ فى اُعتقاده أن السكوت فى مثل هذه المواطن إنما هو اُشتراك فى الإِثم وأن الإِحجام عن المفاداة خليق أن ينزل به إلى أحط منازل الآثام

منذ سنين ثمانٍ لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة فتزلزلت نيّته التى نواها وجلس إلى نفسه يحاسبها

وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول إن لكل حيّ غاية يعمل على إدراك مداها وقد كانت لى غاية أرى أنّى قد بلغتها، فلم أُخفِق مرّةً فى التنكر وخُدْعةِ الشُّرْطة . ولكنها غاية خاوية من رُوح الفضيلة . أمِنْ أجلها ياترى فعلت مافعلت ؟ لقد كان خيراً لى أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنجُوَ بالروح لا بالجسد وأنزل منازل الأبرار . فإن أعُقَّ نفسى بعقوقى ذلك العابدَ . فمالى أفتح باب الماضى على مصراعيه وقد أمرنى العابد أن أوصده ؟ فسوأةً لى . لقد أصبحت لصاً تتعوذ منه أبالسة الشُّطّار ، فإنهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحُشاشتهِ

أمّا أنا فقد سرقت من ذلك البائس وُجُودَهُ ، وابتززت حياتَه وسلبت راحته واغتصبت حتى مكانهُ تحت الشمس وما كان القاتل بدُونى فى قُبح الصنيع ، على أنى لم أُحسن القِتلة فهو اليوم فى سجنه ميّت حيٌّ

ذلك لعمرى أبشع ألوان الأجرام . فمالى لا أفتديه بنفسى فاسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (چان ڤالچان) المجرم الأثيم

فاذا طبتُ بذلك نفسا بُعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجاً لا يَعقُبُهُ رجوع . فإذا فررْت منه إلى السجن فإنما أفرُّ من جحيم الرُوح إلى جحيم الجسد وشتّان مابين العذابين ، ولئن لم أفعل لا كونن من الخاسرين ، وليس بمُغْنٍ عنى ماقدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، إذا ما عدل بى طبعى إلى الخَورَفحال بينى وبين ما اُعتزمته

وهذا العابد لا فتأ أراه كأَنّهُ حىّ وكأنّهُ منى أدنى[1] ظلام ، ينهبنى بنظره نهبا . وكأَنّهُ يؤثر أن يرانى فى لباس (چان فالچان) وإن كَان من نسج الإجرام على أن يرانى فى لباس (مادلين) وإن كان من نسج التقوى ، وإذا جاز على الناس تنكُّرى فلن يجوز عليه

---

(١) أقرب شيء

فما نظروا إلا الى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير فقد
اُستحال الاّ الذَهابُ إلى (أراس) وإنقاذُ ذلك المكذوب
عليه ولئن أقدمت على ذلك لَأُقْدِمَنّ على ما يُحجِم عنه
الناس — تلك هى المفاداة وإن عَزّت على النفس وذلك
هو النصر وإن كَان أليما. فلنخطُ هذه الخطوة فقد شاء القدر
ألاّ أكون نقياً فى نظر الله حتى أكون دِنساً فى نظر
الناس

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام إلى كُتُبهِ
فنسقها وإلى وثائقِ ديون كَانت له على بعض المعسرين من
التجار فألقى بها فى النار ثم كتب كتاباً وغلفه

ولو أن أحداً كَان معه فى الحجرة لاُستطاع أن
يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام
بعد ذلك إلى خِزَانة أسراره فأزعج منها دَرْجًا اُلتقط منه
محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هـذا العمل وقد خرج به التأمل عن حدّ الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ولو رأيت أنه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سِرّ أو استجلاء غامض

ضم اليه الكتابَ الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد إلى السير فى مخدعه وفكرُه لم يبرح رأسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقّلَ ببصره رأى أمامه لوح المقدور وفيه سطر قد خُطّ بأحرف من النور : اذهب فأمِطْ عنك اللثام وانتسِبْ

وعلى الاثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما مِلاكَ حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين أخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسى القارىء أن أُولاهما لم تكن غير التنكر وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدّر حتى خلَصَ الى الحكم بأن الأُولى

إنما ركّبت من الأثَرَة (١) وحب العاجلة (٢) فهي إذن من وَحى الشيطان . وأن الثانية إنما صُوّرت من الاحتساب وحب الآجلة فهى إذن من وحى السماء . ورأى هذه وهى تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرُزَق التمييز بين نزعة الشر ونزعةِ الخير

ثم اُشتبكتا أمامه فى نزال فجعل يفكر فى أمرهما . وإنه لكذلك إذ نظر اليهما بعين عقله فاذا بهما قد أُخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا فى تماثيل العماليق . وفى هذه اللمحة أحَسَّ فى باطنه وفى ذلك الملكوت النفس الذى لا يُعرف مداه نِضالاً قد قام بين ملَك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائبَ من الظلمة والنور . وكان يُؤَتّى (٣) اليه أنه فى حراسة ذلك الملَكِ فشدّ (٤) منه أن رآه من الظاهرين (٥) ومرّ كأن لم يكن ذلك الجازع وأيقن أن السريرة والقدر قد أوفيا على ساعة الإبرام فى أمره

---

(١) حب الذات (٢) وحب الدنيا (٣) تخيل (٤) قواه (٥) الغالبين

فقال فى نفسه لقد أوضح العابد سبيلي فى الطور الأَول من حياتى الجديدة . وهاهوذا (چان ماتيو) يُوضحهُ لى فى طورها الأخير

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدْأةً فمرت برأسه ألْف فكرة وكلها تصيح به أن امْضِ فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى أثنائها من خَلْجَةِ شكٍّ مَرَّت بنفسه ، فقال أرانى متعجلا فى الأمر . وما كان (جان ماتيو) ممن يُعتَدُّ بهم إنْ هو إلا لِصّ من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه اذا كان هذا الرجل من السَّرَقة كما يزعمون فإن عقابه لا يتعدّى عمر الشهر فى السجن ، فما له كُتِبَ عليه أن يطوى فيه حياته فلولا أنهم أخذوه بى وحلّ به شؤم اُسمى الذى لبسه كارهاً لما حشروه فى زمرة المجرمين لاُنتزاعه تفاحتين أو ثلاثاً من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع لولا أن علم أن له سوالِفَ غير محمودة وأنه يحمل ذلك الاُسم الممقوت

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يُعْذِرُون هذه البطولة بالعفو عنه دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلّف وراءه من الخيرات في هذا البلد

ولكنّ هذا الخاطر لم يلبث أن محَتْهُ ابتسامةٌ مُرّةٌ قد خَطَفَتْ على شفتيه فقد قال لنفسه على الأثر

إن قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستُلْبِسني ثوبَ المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لايحتمل التأويلَ فهو سجن الأبد

ثم نفض عنه غرور دنياه وقطع مابينه وبين الأرض واتّجه الى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال سبيلى أن أقوم بالواجب فلست أتوقع شرًّا مما أنا فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على أذلالها ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأُحدوثة التى أعلم دون غيرى أنها متبلة بالجريمة ، فاى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم

إذا ما عَلِقَتْ بها اللعنة . على أنني اذا طِبت نفسا بالاحتساب
وقضيت العمر في السجن مقيدا مغلولا في لباس من العار
لا يستمطر رحمة القلوب . بلغتُ بذلك مرتبة الرضى

وهذا أمر قد فرَغ منه القَدَرُ وما خُلِقتُ لأنقضَ
في الأرض ما أُبرِمَ في السماء

فأنا اليوم بين أمرين إمَّا فضيلة تحتها عار وإما عار تحته
فضيلة . وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس فما
نهنهت من عزمه ولا كفَّتْ من غَرْبِهِ . ولكنَّها كدَّت ذهنه
وأفظعته بكرّاتها حتى وَهى عن احتمالها . فجعلت عروقه
تطرق في صفحتي وجهه كالمطارق وإنه لكذلك إذ آذَنَتْ
ساعة البِيْعة بانتصاف الليل وأجابتها ساعةٌ بإحدى دور
المدينة فجعل يَعُدُّ الاثنتَيْ عشرة دقةً للساعتين ويضاهي
بين جَرَس [1] الجرَسَيْن فذكر على الأثر أنه رأى عند أحد
باعة الفلزَّات [2] جرسا عتيقا معروضاً للبيع وعليه اسم
(أنطون ألبين)

---

(١) الجرس صوت يجرس (٢) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد

ثم أَحسن البردَ فزاد فى نار المدفأة وغاب عنه أن يُغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر ما كانَ يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ولكنه لم يَنْشَب أنْ خرج منه الى الذكر فقال : لقد ذكرت أنى عقدت النية على الذهاب وإماطة اللثام

وخطرت له ذكرت (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس ومِيضَ نورٍ لم يكن يتوقع رؤيته فتغيرت حوله وجوهُ المناظر

وصاح : ويلٌ لى لقد أعمانى حب الأَثَرَةِ فلم أفكر فى غير نفسى وأرانى قد قصَرت همّتى على أمرين إمّا التنكر وفيه نجاة الجسد وإمّا الظهور وفيه نجاة الروح

ولقد خاصمت نفسى الى نفسى فكنت قاضيا قد جمع بين العزة والهُون ، وكنت مجرما قد ضمّ بين النُّبل والخسة

وهذا لعمر الله لون من ألوان الأَثَرَة ولو ملت إلى الإيثار لبدأت بغيرى

فهبني ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى إلى السجن وخلّوا سبيل (چون ما تيو) فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بي فأقمت فيه المصانع وأيقظت الصناعة وشَيّدْت دورا للعاملين وأخرى للعاملات وكَفَلْت الايتام وحبست الأرزاق على الزَّمْنَى وكنت لهم بمنزلة الوَقود من التَّنُّور واللحم من القِدْرِ

فهم يستمدون منى حياتهم وأنا محور تجارتهم وموئل عُفَاتهم ومثابة[1] أرازقهم وبى أخصبَ عيشُهم واُخضرّت أعوادُهم ولم يكونوا من قبلُ شيئاً مذكورا

دع تلك البائسة المضعوفة التى أصبحت هامَةَ[2] اليوم أوغد بعد أن اُبْتذِلَتْ خِدْرَها وَهوت من سماء طُهْرِها ، وأنا الذى أخْرَجها عن أفق العفة وكنت أُذُناً للسعاية بها فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل فأكلَتْ بثدييها وكنت لها من الظالمين

---

(١) محل (٢) يقال فلان أصبح هامة اليوم أو حضر حينه

وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدتُ الأُمّ على نجاتها فما أصنع بعهدى معها إذا نزحتُ اليوم فماتت الأُم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق يقذف بها القدر فتتلقفها الغير فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتي اللُّبث والذهاب

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته رعدة مرّت كأن لم تكن . فتمكّن من نفسه وقال لِيَذهَبْ ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق . ومالى احسن به الظن فأدفع عنه الإثم ، فلأمكثْ هنا وأُثمر هذا المال فاذا أحسنتُ عليه القيام ولدَى فى مدى عشر عشر سنين ألْفَىْ ألف أنفقها فى وجوه البرّ ، وليس بى أن أعمل لنفسى فلست ممن يتربّحون فى الجميل ، فإذا استبحر البلد وماج بأهله ولَدَتْ القرية مَدِينَة وولدت الدسكرة[1] قرية وأطلع العراء ضيعة[2] فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثرُ المناسج وتسدُ الأُسرُ فيموت البؤس وتموت

---

(١) المعروفة بكلمة عزبة (٢) أى الارض المزرعة أو الافدنة

بموته الآثام ، فلا قتلَ ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعمُ تلك البائسة بقرب طفلتها

لقد كنت مُحمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك إلا الأثرة ، ولو أننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل وإنها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

أأستحيي نفسا أثيمة وأُميت أنفسا زكية وأتوقعُ على هذا أجرا . بسلٌ[1] على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأٍ الى رؤية طفلتها وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أُمًّا

كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقا بما حلّ به من العقاب ، ولا أحسِبُ إلا أنه ربّ سوالفَ فى السوء فلا يَضيرُه أن يقطع المرحلة الاخيرة من عمره سجينا كانَ أو طليقا

ولو أن لتلك الطفلة كافلا غيرى لما حزَبَنى الأمر فاذا أُجرمت باللُّبث هُهنا ، فعلىّ إجرامى وإن هى إلا غمراتٌ

(١) أى حرام

من النّدم أجِدُ لها مسًّا فى الفؤاد ، فلأصبرنّ على سعيرها ففيه نعيمٌ لِأُناسٍ ليس لهم دونى من ولىّ . وهاأنذا وطّنت النفسَ على عيش ظاهره الرحمةُ وباطِنُه العذاب . ذلك هو عين الاحتساب

ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسّطتْ فى هذه المرة نفسهُ ورضى عن عُقباه وشحذ عزيمَتَهُ على المُضّى فيما رسمه

إنما تُلْتَمسُ الحقائق فى دياجير أغوار الفكر فمثلها كحجر الماس لا يُلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل — خيل إليه أنه هبط إلى تلك الاغوار فسلك فى أشدّها حلوكةً وأبعدها مدًى ، ثم جعل يتحسّسُ بيديه فى تلك الدُّجْية [1] حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق وانه ليَقبضُ عليه إذ تفجر منه نورٌ كاد يُعشى بَصرهُ ، فصاح ها أنذا قد وجدتها وهاهو ذا فى يدى مفتاح طِلّسْمِها

---

(١) مفرد دجى

فأنا (مداين) وسأكونه ما حييت فلا يسرّنى أن اكون (چان فالچان) ومالى أقولُ چان فالچان وأنا لا أعرف خلقاً قد ركّبَ عليه هذا الأسم ، فان كان حيا كما يزعمون فليتولَّ أمر نفسه ولاأحسب هذا الأسم الاطائرَ شؤم له سبحاتٌ تحت الليل فإذا عنّ له رأسٌ قد انتواه القدرُ وقف فوقه فاضطرب ثم انقضّ عليه فطاح به

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال لقد رفّهت عنى هذه العزيمةُ فصرت بعدها غيرى قبلها ..

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه ..

لتصنع العواقبُ صنعها فقد قُضىَ الامر واُستحال غير الإقدام على أنى لاأزال أرى آصرةً من الولد تربطنى بهذا الأسم فمن الكَيْس قطعها

وأشياء فى هذا المخدع ربما وقفتهم على أثرى ومهدت السبيل للشك فى أمرى

وهن وان كن صوامت فإنهن أفصح عند الشهادة لسانا من الناطقين ، فمن خطل الرأى أن أبقى عليهن

ثم ضرب بيده إلى جيبه فأخرج كيساً اُلتقط منه مفتاحا أولجَهُ فى ثَقْبِ قفلٍ لا يكاد يُرى لدِقَّته فلَكم خدعَ مكانُه عينَ الناظر لِكُمونه بين خطوط دَكناءَ رُسِمَتْ متناسبةَ الاوضاع على ورق كُسِىَ به الحائط . فاُنفرج الحائط عن مخبأٍ كانت تواريه مرآةٌ مُضلِلة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرفَ عينَ الناظر . وكان فى ذلك المخبإِ أهدامٌ بالية ومعطف أزرق وسراويل[1] رثٌّ وجرابٌ عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مرَّ بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يُخفيه عن نظره هرباً من ذكرى السجن ويُظهر الشَّمعدانين حبًّا فى ذكرى العابد

ثم رمى البابَ بنظرةٍ عَجْلَى كأنه يخشى الغِرَّة رغم الوثوق من الإِيصاد ، وأهوَى كاللمح على ذلك المتاعِ دون أن يُسعِده بنظرة منه فاُحتضنَه ، وألقى به فى النار ، ذلك

---

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات

المتاعُ الذى طالما قدّسه ولم يبال الخطر فى الإبقاء عليه

وما هى إلا لمحةٌ حتى أشرقَ المكانُ بنور أحمر رَقصت أشعتهُ على الجِدار الذى يُسامته ، فعلم أنّ النار قد أتت على متاعه إلا عصاه فقد بقى فيها ذِماء (١) دَلَّ عليه شررٌ كانت لا تزال ترمى به إلى وسط الحجرة

وسَطع ريحُ الجرابِ وهو يحترق بما فيه من الخُلقان ، وظهر على أثره فى المَوقِدِ شئٌ لَمّاع لو دانيتَه لرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضيّة — قطعة الغلام (ساڤويار) ووقع نظرُه على الشمعدانين وقد أضاءَتْهما النارُ فانعكس لهما على المَوْقِد ما أدرى أىُّ لون من ألوان الأشعة ، فصاح وهذان أيضا لا معناة (٢) للإبقاء عليهما ثم ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صُهرا وحالا الى سبيكة مُنكرة — ثم خطا الى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال نعم الدفء

ولم يكد يخمَدُ مَغبَّةَ أمره حتى شعرَ كأَنّ صوتا فى داخله يصيح به (چان فالچان) (چان فالچان) فقفَّ (٣)

---

(١) بقية حياة (٢) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٣) قفّ شعر رأسه أى وقف

شعر رأسه واستُطِيرَ فؤادُه وكان كمن يَسمعُ صوتَ الويل
ثم أخذ يتسمع واذا به يناديه : هنيئالك لقد اكملت صنعك —
أتلفت الشمعدانين — نجوتَ من ألم الذكرى — نسيت
العابد — نسيتَ معه الماضى — سُقتَ (چان ماتيو) الى
الهلاك — هنيئا لك لقد نجوتَ — فكن شيخا وَقورا
ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضى فِدَاءً لك — كن
عريض الجاه خِصْبَ الفِناء عُلْ من شئت من الناس ،
واكفُل من شئت من الأَيتام

ولا تنس وأَنت مستقرّ فى الذّروة من الجاه ومتدَلّ
فى الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلْبَس فى السجن
لباسَك ويخطِرُ فى قيودك وأغلالك فَلْيَهْنِئْكَ ماقدمت
يداك

فتفصّدَ جبينه عرقا ووقفْ ساهمَ الوجه سادرَ البصر
قد شُدّت أهدابهُ الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت
لا ينقطع عن مناداته (چان فالچان) إنك لا تعدَم أن ترى

حولك قنابل [١] من الناس ترتفعُ أصواتُهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت فى مَظهر سلطانك ذلك الصوتِ الخفىّ الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتقِ دعوة تنهضُ من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتَحجُبُ فى طريقها دعواتِهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتمسى ومالك غيرُ اللعنةِ من خلاق [٢] ولبئس عُقبى الدار

وأخذ ذلك الصوت الذى كَان يُحَدّثه كالهامس فى أذنه يعلو ويعظم حتى صار له دَوِىٌّ كاد يفتق طبلَتى مسمَعَيه ، وبعد أن كَان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يُكلمه لم يكن غير حىّ من الاحياء تحتوى الحجرةُ فرمى ببصره يطلبُه فى أركانها وصاح وهو لا يعى : من المتكلم ، ثم ضحِك ضحِكة مَنْ به مَسٌّ — وقال لَشدَّ ما وهمتُ فليس هنا غيرى

وما كانت الحجرة خالية كما كَذَبَ نفسهُ ولكنّ الذى

---

(١) جماعات (٢) أى نصيب

كان فيها لم يكن ممن تقعُ عليه العيون — ثم عاوَد المشى يخطى رَتيبةٍ [١] تبعث الأسى وتثير الشجَنَ فكانت تقطع عليه سلكَ التفكير وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غرارهُ [٢] فيثِب من فراشه مُروّعا مذعورا

على أن هذا المشى كان يُرَوح عنه ويشْمله فى آن . وقد تدفع المُلمات صاحِبهَا إلى الحركة رجاءَ أن يُصيب فى طريقه من يَشدّ منه برأي ينفّسُ عنه بِنصح

وأجازت به آنةٌ نـَكر فيها نفسه ومكانَه ثم نبهه فزَع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولا أمام كلتا العزيمتين اللتين أعتزمهما وبدا له قُبح ما أضمرَ فأيقن أن لا خير فى الأولى ولا أجرَ فى الثانية . وقال ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بچان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بي وأَنْظَرني ههنا حتى مكّنت لنفسى فَملَكت يومى وبلغتُ من الثروة ما بلغت. ثم التَفَتت نفسه التفاتة إلى حاضره وأُخرى إلى ماضيه وقال (اكشف عن نفسي) قالها ونفسهُ تـَكاد تسيل جزعا

---

(١) الشيء الرتيب هو الذى يقع متشابهاً على وتيرة واحدة (٢) الغرار النوم القليل

فسلام على عيشٍ لبستهُ مُضطراً أو خلعتهُ كارهاً . فلقد آن للنفس أن تودع ما هي فيه ، فتستبدل[1] الاذلال بالاجلال والضيقَ بالسعةِ والنصبَ بالدعة ، وللعين أن تستبدل عُبوس السجّان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن أن تستبدل رنّاتِ السلاسلِ بتغريد البلابل عند اقبال الربيع في وشيه البديع ، وللرِّجْلِ أن تستبدل الحَجْلَ في القيود بالتنقل بين المروج والنجود[2] وللأنف أن يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونةَ المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوَحدةِ والتقلّب في ألوان الشدّة ، وفي ذمّة الله أيّتها الدار فما كان أخصبَ أيامكِ وأقصرَ أعوامكِ وأنتِ أيتها الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك .

---

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائما على المتروك قال الله تعالى اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير

في هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة في المعاني واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الارض

وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشا أخضر ، لأستقبل عيشا أغبر ، وألبَسَ رداء أحمر ، نَسَجته يد البلاء الاكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفراً .

أفى مثل هذه السن وقد نيّفت على الخمسين اردُّ الى السجن وأنا أعلمُ الناسِ بما فيه من عذاب وهُون . ألاَ أنّي لو كنت في عهد الشباب لاضطلعتُ بخطبه أمّا وقد أخذت منى الأيام فلا طوق على مُصابَرة الشدائد

ينهرُنى الحرسُ ، أخاطَبُ (١) بالكاف ، تأخذنى سياط السجانين ، دع عصا كبيرهم : أُمسى عارِيَ القدمين فى حذاء من الحديد. أمدّ ساقى لمطرقةِ القَين (٢) الكشاف فى الصباح والمساء لِيبلوَ قيودها ويمتحن أغلالها ، أُصبح هدفا لأعين الزوّار فكلما مر بى أحدهم قالوا هذا هو (جان فالچان) الشهير الذى كان شيخا (لمنتراى سيرمير)

فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق وقد كَدَّنا المُوَكّلُون بعذابنا ، فندخل

(١) علامة الاحتقار (٢) الحداد

اُثنين اُثنين بين أيد تعملُ في أقفيتنا وسياط تقدح في ظهورنا. فما أمرَّها من حياة. إني أكادَ أتهم القدر. أتراه تجرَّد من الروحانية واُنغمس في البشرية فحلَّ في هيكلِ شريرٍ حَضَرتْ في اُستنباط الأذى قريحتهُ وأقفر من الرحمة فؤاده

ثم رجع الى هواجسه الأولى ووقف عند تلك العقدة التي أعياه حلُّها

أيقيم هنا فيصبح شيطاناً أحلته الجنة أُم يذهب إلى هناك فيصبح ملكا أحَلّهُ السعير. فتأوه وقال: ربي كيف الخلاص

ثم اكتنف نفسه العذابُ وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه، فربه ماأدرِي أيُّ صنوفِ البله ولعلّه أثرٌ من آثار مواقع اليأس في النفوس. وذكَرَ وهو فيما هو فيه كلمةَ (رومان فيل) فقال ترى متى سمعت هذه الكلمة؟

سمعتها منذ عهد بعيد في أُغنية صغيرة تقع في بيتين من الشعر وإني لأحسب (رومان فيل) اُسما لغاب صغير

بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب في شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق

وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح في مِشيَتِهِ كأنه وليد قد خرج من الحَبْوِ الى المشى ، فَتُرِكَ يمشي وَحدَه فهو لا يكاد يتماسك. فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب اليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى إذا تمكن من نفسه أو كاد ، أراد أن يعزم العزمة الأخيرة . إما الكشفُ عن نفسه وإما السكوت على حاله ، ولكنَّه لم يرزق التمييز

وطاحت هواجسُه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب إلى دخان تذهب به الرياح ، فأحس أنه أنَّى وقف أو وَقَفَتْهُ الضرورةُ فإن بَضْعةً منه هالكةٌ لامحالة ، فعليه أن يَشْهَدَ إما احتضارَ سعادته وإما احتضارَ فضيلته وعاود التردد فعاد الى موقفه الأوَّل

هكذا كانت تضطرب هـذه الروح المعذبة تحت سيّال من الـكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التي كانت تعبث بها هُوجُ[1] رياح الابد — وتحت ذلك الفلكِ الخالى بالـكواكب — كان ذلك السّرُّ الغامض الذى أعجز العقول إدراكُ كُنهه — ذلك الذى حل فى صورة قد رُكّبت من الـكمال والهُدَى ومن آلام هذا الورى — يعاف هو أيضا شرب الـكأس المرهوبة التى طالما نحّاها عنه بيده كلما خالها تفيض بكسَفٍ من ظلمات ، تسلسلت منها ظِلالٌ تجزع عند وِرْدِها النفوس

---

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة

ألوان الألم في النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشي في حجرته فاستشعر التعبَ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم يُنفِّسْ فيها عن نفسه فارتمى على مقعد. وما هو إلا أن احتواه حتى غطَّ في النوم، وسنحت له رؤيا شبيهةٌ بتلك الرؤى التي تُمثِّل للمهموم في نومه ما كان عليه في يقظته، مغاليةً في تلوينِ وجوه الألم. ولقد نال منه هذا الحُلُمُ مالم تَنَلْهُ اليقظةُ فلم يكد يُفيقُ حتى خط بيده ما كان مركوزاً في نفسه من وحى ذلك الكابوس

وليس من الأَمانة أن نمرّ به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر — ونحن مثبتوه هنا لم نخرِم منه حرفا

الرؤيا

رأَيت كأني في قفر لا نبتَ فيه، وكأن كنت بحيث لا لَيلَ ولا نَهار، وكأن أَخي كان يماشيني في ذلك القفر،

ذلك الأَخ الذى طويتُ معه عهدَ الحداثه ثم افترقنا وطال الأَمد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريقُ ببعض السابلة ثم خضنا فى حديث جرَّ الى ذكر جارة كانت لنا فى ذلك العهد — كانت تعمل أَمام نافذة مفتوحة تُطلُّ علي الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث فى ذلك القفر نجد مَسَّ البرد المصبوب علينا من تلك النافذة

وَهفا بنا فارس فى لون الرَّمَاد على فرس فى لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه حتى إن الناظر الى جمجمته ليكاد يَعُدُّ فيها فروع أوداجه وبيده مِخْصَرَة فى لدونة فرع الكرم وفى ثِقلِ عود الحديد — هفا بنا ولم يسلم

فقال لى أخى اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف وكَان طريقا سماؤه فى لون أرضه لايرى السالكُ فيه أجمةً ولا خضراء وإنى لأُحدِّثه وأَنا لاهٍ عنه بما أَنا فيه ، إذا به قد راغ روغة واُختفى — ثم رُفِعَتْ لى قرية فَيَمَّمْتُها فخَرَصْتُ[1]

---

(١) أى تظنيت خمنت حزرت

عليها أنها قريةُ (روما نقيل) فركبتُ أولَ طريقٍ لقِيني
فاذا به قفر ، عدلت عنه إلى ثان فلما بلغت الزاوية التي تربطه
بأخيه إذا أنا برجل قائم عند حائط فسألته عن اسم القرية
التي أحلَّتْني فلم يُنْعِمْ بالجواب : وفُتحَ بابُ دار وَلَجَ فيه
ذلك الرجلُ فتعقبته فاذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته
لمن البيتُ فأعرض عني ولم يُجب ، وكان للدّار بستان
دَلفتُ اليه فاذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لِمَن
البُسْتَانُ فأعرض عنى ولم يُجب . فَهِمْتُ على وجهى فى تلك
القرية التى أقفرت من الإنس سُبُلُها وفُتحتْ أبوابُ دورها
فما رمانى الطريق بإنسيّ ولا أحسست حركة فى دارٍ من
تلك الدور — غير أنّى كنت أرى عند كل جدار وخلف
كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائماً قد أخذ نفسه
بالسكوت

فانحدرتُ الى المزارع فلم أكد أنقل فيها بعض الخُطَى
حتى رأيتُ وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، واذا بكل
أولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا أثرى ورأيت كأنهم

يمشون الهُوينا ولكنهم على تريثّهم كانوا أوسعَ منى خُطى وأخفّ حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى وكانوا جميعاً فى لون التراب ، فسألنِي أحدُهم وأحسبه أولَ رجل لقيته عند هبوطى القرية

أين تمضى ويلك — أو لسْتَ قد مُتّ من عهد بعيد . وبينا أتهيأ للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعاً

ثم هبّ من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليلا فقام إلى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فإذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطلّ على فناء الدار والطريق

وَبينا هُوَ ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتاً جافيا وضجة عنيفة على وجه الأرض ، فخفض بصره فرأى نجمين أحمرين يَشِعّان أشعة تترامى فى جوف ذلك الليل ، وكان لا يزال فى بقايا خباله — فقال دُفِعْت الليلة الى عجائب — ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا — ثم قامت ضجّة ثانية كان من أثرها فى نفسه ان عاد إلى

صوابه فنظر نظرة أُخرى فاذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شُدَّ اليها جوادٌ أبيض فسأل نفسه لِأمرٍ مّا بَكّرَت هذه العجلة

وفوجئ بطرقٍ على الباب — فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن من الطارقُ . تلك أنا ياسيدى الشيخ فعرف صوت خادمه العجوز ، ، فقال وماتريدين : فقالت إنها الساعة الخامسة ياسيدى . قال وماشأنى بذلك : قالت لقد حضرت العجلة . قال أيّة عجلة قالت تلك التى تقدّم سيدي بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك . قال ويحكِ أى سائق . قالت سائق السيد (سكوفير) وما كادت تذكر هذا الأسم حتى احتوته رِعدة وكأن برقا من الذكرى قد خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتاً طويلا ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشّى قلبها في صدرها من هول ماترى . وعاوده البَلَهُ فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكيره . فقالت سيدى الشيخ : كيف

أجيب السائق فقال لها قولى له إنى سأُوافيه الساعةَ

* * *

وكان البريد بين (أراس) و (منتراى سير مير) يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات تُرْسَين مطوَّقين بجلد أَسمرَ . وفى كل عجلة مقعدان . مقعد للسائق ومقعد للمسافر

ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شئ من الرُّوَاء . .

وقد كان أيسرَ عاب (١) بها أنها حدباء

فاذا لاحت للناظر عند مُطَّرَح البَصرِ وهى تزحف تحت الأُفق زحفا حَسِبَ أنها من تلك الدواب التى دقَّتْ خصورها وثقلَتْ أعجازها

وكان البريد الذى يغادر (آراس) فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد (منتراى سير مير)

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط الى (منتراى

---

(١) أى عيب

سورمير) من طريق (هيدسان) قد صَدَم عند منعطف الطريق عجلةً صغيرة قد شُدَّ اليها جوادٌ أبيض وفيها إنسان مُدَّثِّر ، فرجّتها الصدمة رجّة أشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوفَ ، ولكن الرجل قد انطلق في طريقه وهو يركُضُ جَوَادَهُ مِلءَ فروجه . فقال حامل البريد . ويل له ، لقد استطرد به الشيطان . ولم يكن الذى مرّ يعدو غير صاحبنا الذى بات على حالٍ حقيقةٍ بالرحمة . فلو أنك سألته الى أين تمضى ؟ ومالك هكذا تُسرع ؟ لأَجاب . لا أدرى

إنه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فإما الى (آراس) وإما الى غيرها . ومَرّت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نَهْباً لقوتين متباينتين لا قِبَلَ له بهما ، هذه تدفعه وتلك تجذبه ولا يعلم الا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن

ذا الذى سَلِمَ من أن يضلّ ولو مرّةً واحدة فى ظلمات مغاور الغيب

فسار وما عزم عزما ولا وقف عند رأى رَضِيَهُ ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه. فكان فى أخرى هواجسه مِثلَهُ فى أولاها، مازال واقفاً حيث كان. ثم عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة فقال مهما كانت العاقبة فمن العجز ألاّ آخُذَ بالحيطة. وليس للمرء أن يقطع بوقوع أمر من الأُمور، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثاً واستقراءً. ومن نَصَبَ نفسَهَ للحكم على الأشياء وهو غير مُكْثِبٍ [1] فقد أخطأ مواقعَ الرأى وأَطلَعَ من الذرّ جبالا، ولعلّى إذا لقيت (چان ماتيو) وجدت الامر أيسَرَ مما فى نفسى ورأيته أهلا لما نزل به. أمّا (چافير) فما كانَ ليكبدَ لى وقد صرف الله عنّى عنانه وصبّه على (چان ماتيو) فصوّب اليه الظنونَ والشبهاتِ، ونعوذ بالله من

---

(١) أي قريب

عنادها ، فإنها ما نزلت بصدر إلا تعصّى على صاحبه انتزاعها

فلا خوف إذاً علىّ من ذلك الداهية ، ولا أكذبُ نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكنّ باب الرجاء لا يزال مفتوحا ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أُصَرِّفُه كيف أشاء

واُشتدّ به بعد ذلك القلق فكان يُؤْثِرُ فى قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب

وكَان كلّما اُنقبض صدره صبّ سوطَه على ذلك الجواد الذى كَان يُحْضِرُ (١) إحضاراً يطوىَ فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اُندفع فى طريقه نَمَتْ عنده شهوةُ الرجوع

ولما تنفّس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اُختفت مدينة (مونتراى سير مير) فنظر إلى افق قد اُبيضّتْ ذؤابته وبرزتْ صحيفةُ وجهِ فجرٍ ولدَتْهُ ليلةٌ من ليالى الشتاء ،

---

(١) أى يجرى جريا سريعا

إصبَاحُها أشبه الأَشياء بإِمسائِها . لا تكاد تُرى تباشيرُه ، ولكن أخيلة [١] التلال والأشجار قد أضافت الى ما كان في نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى، وكان كلما مرّ بدار من تلك الدور المنعزلة على أُقَم [٢] الطريق . قال فى نفسه ما لهذه الدارِ بُدٌّ من ساكن ينام ملء جفونه

وكان لخبب الجواد وجَرْس جُلجُلِه ووقع العجلة على البلاط إيقاعٌ حسن ونَغَمٌ مُتماثِل يُدْخِلُ الانس على نفس الخلىّ ويزيد فى أسى نفس الشجىّ

فبلغ قرية (هيدسان) وقد أضحى، فوقف أمام نُزُل رجاء أن يُنفِّس عن الجواد ويعلِفَه . وكان جواداً كما قال عنه صاحبه من أصل بولونى . عظيمَ السليل [٣] سحيرا [٤] أدلك [٥] أهنَع [٦] مفتوحَ اللبان . دقيق عظم الساق . صُلبَ الحافر . فهو وإن لم يكن أصيلا كان عُصلُباً [٧] متينا . فعلَ فعلَ

(١) جمع خيال (٢) جوانب (٣) أى كبير الرأس (٤) كبير البطن (٥) عريض الكفل
(٦) قصير العنق (٧) أى قوى الاعصاب

كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين وما
نَضَحَ كَفَلَه بماء ولا رَمَتْ أعطافُه بحميم

وكان لايزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام
النزل يحمل اليه العلف وحانت منه التفاتَة الى العجلة
اليسرى فصاح بالرجل ، أَوَأنْتَ على سفر بعيد . قال
مالك ولهذا . قال هل قطعت شُقّةً طويلة . قال خمسة
فراسخ . فأجاب الغلام وهو يُدْمِنُ النظر الى العجلة ، لئن
كانت قد قطعَتْ بك خمسةَ فراسخ ، لمن المحال أن تقطع
بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ماحلّ بها من العطب .
فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام . فقال الغلام وهو
يحاوره . أوْلَى [(١)] لك فما كان أخْلقَها أن تطرحكَ وجوادَك
فى حفرة من حفر الطريق . ثم أشار الى مكان العطب فاذا
العجلة اليسرى قد اُخترمها البريد حين صدمها فى (منترای
سیرمیر) فقصف إصبعين من أصابعها وكاد محورها يُفْلِتُ

---

(١) نجوت وما كدت تنجو هكذا شرحهالنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى
وهو من امضغ العرب للشيخ و القيصوم

المُحَوّى [١] فقال الرجلُ ابْغِنِى نجاراً له خِصّيصاء بهذا العمل . فقال إنه على خطوتين منّا . وكان النجار على عتبة داره ، فجِئ به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مطبّب ينظر الى ساقٍ مهَشّمةٍ . فقال الرجل أتعالج إصلاحها فى الحال . قال نعم — قال ومتى اسافر . قال غدا ، فأجاب الرجل غداً وقد ملكه الدَّهَشُ . فقال النجار إنّ إصلاحها يستوفى عمْرَ النهار كلّه . فهل أنت من أمرك على عجل . قال ما أحوَجني الساعة الى السفر . قال وَدِدْتُ لو تهيأ لك ذلك . قال أصلحها ولك حكمك [٢] قال ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك . قال إنى مسوق الى السفر فإذا أعياك إصلاحها فابغِنى غيرها . ثم قال أهنا مركبة للكِراء . قال عندي مركبة يقبضنى عن إكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك . قال . بِعنِيها . قال أمّا البيع فلا . قال إنى ندِىّ الكفّ وإذا اشتطّ البائع . قال

---

(١) المحوي المسمار القلاووظ (٢) أي ما تشاء من الأجر

تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس[1] والثلاثين من كل شهر فان شئت اكتريتَها على شريطة ألاّ يراك ربُّها وأنت منطلق بها ، ولكنها عجلة عاتية لا يستقل بها جواد واحد ، ومَنْ لك الساعة برأسين من الجياد ؟ قال من مرابط خيل البريد . قال الرجل وما وجهك[2] قال مدينة (آراس) قال أوحتمٌ مِن الحَتْمِ أن تبلغها اليوم . قال نعم . قال ألا يستوى عندك أن تبلغها فى فجر هذه الليلة . قال لا . قال هل تحمل جوازاً للسفر ؟ قال نعم . قال إنك اذا تهيأَ لك أن تحصل على جوادين من مرابط خيل البريد فما أَنت ببالغ (آراس) قبل الغد ، فإِن خيول البريد فى هذه المراحل منثورة فى المزارع ونحن فى إبَّانِ الحرث وهم يجمعون له الخيل أنّى أصابوها . فاذا لجأ سيدى إِلى ذلك كان عليه أن يلبَثَ نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعَرِضُ له من العقبات . قال أُسَرِّجُ جوادى هذا من عجلتى وأمتطيه

---

(١) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا عند قيام الساعة يريد أنه لا يستخدمها مطلقا (٢) الوجه القصد ، الجهة السبيل

فابغِني سَرْجاً . قال وهل يصبِر جوادُك على صحبة السرج ؟
قال لقد ذكَّرْتَ منى ناسيا إنه لا يصبر على صحبته . قال هل
من سبيل إلى جواد نبيل يبلغ بى (آراس) من غير تنفيس [١]
قال إنك لن تظفر به وهبك وجدتَه فإن ربه ليضن به ولو
مَلأْت يديه ذهبا

فشاع السرور فى نفسه وقال . إن للعناية لَيَداً فيما أرى
أو ليست هى التى أتلفت العجلةَ وقطعتْ علىَّ السبيل .
وقد أنْذَرَتْنى فلم يَلوِنِى إنذارها عن القصد والتمست المخرجَ
مما أنا فيه ، فما ثنانى بَرْدٌ ولا قعد بي نَصَبٌ ولا أرهقتنى
نفقةٌ فأصبحتُ وقد عدَانِي اللَّوْمُ ، فاذا استحال علىَّ
المُضىّ فى طريقى فتلك مشيئة القدر . ثم تنفّس ملءَ رئتيه
تنفُّس الحر الطليق وخُيِّل إليه أن السهم الذى ضلّ نَصْلُهُ
فى فؤاده قد انتزعه منه نازعٌ ، فوجد لذلك روْحاً لم يجده
منذ رأى وجه (چافير)

(١) أي في مشوار واحد كما تقول العامة

وقال لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق فأخطأني التوفيقُ ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله إلا الرجوع على هاتين النعلين

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل إلى أذن حىّ ولَلَبث مكتوماً ، ولكنه كان على الطريق المعبّد . ومن شأن مثله أن يَلفتَ المارّ الذى يستهويه حُبُّ الاستطلاع فيقف ناشرا أُذنيه لتَسَقُّط الخبر ، فلا يكاد المحدّثُ يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلْقةً من الناس ، وما منهم إلا مَنْ هو فارغ لذلك . وكذلك وقع (لچان فالچان) فبينما هو يحاور النجار واذا بطائفة من السابلة قد التفّتْ حوله وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسللَ من الجماعة وطفِقَ يَعْدُو حتى اُختفى وما كَاد يَهُمّ (چان فالچان) بالرجوع حتى عاد الغلام يصطحب امرأة عجوزا

قالت العجوز إن غلامى هذا نقل إلىّ أنكَ فى حاجة إلى مركبة . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى نَدِيَ بالعرق

جبينه وشعر كأن اليد التى سرّحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم أجاب نعم أيّتها المرأة الصالحة فأنا فى حاجة الى مركبة أكتريها ولكنهم يزعمون أنى أُحاول المحال . قالت لقد وجدتَها . قال أينَ ؟ قالت عندي . فاحتوته قُشَعْرِيرةٌ وقال فى نفسه كان الذى خِفْتُ أن يكون . وكانت مركبةً عتيقة من الخيزُرَان قد علاها الوَحَلُ وأكلها الصَّدَأ وفعل فيها الجوُّ فِعْلَهُ . ولم تكن بأحسنَ حالاً من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأبَ على ما فيها أن تقِلّه الى (آراس) فلم يجد عنها مَزْحَلاً ، فاكتراها على حكم ربّتها وشدّ إليها جواده وانطلقَ فى سبيله . وبينما كانت العجله تجرى به كان يجرى فى نفسه حديث غريب ، لقد أحسَسْتُ منذ هُنيهةٍ سروراً بعثتَهُ تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المُضىّ فى طريقى وأرى الساعة أنه سرور كاذب . الويل لى . أيسرّنى الإحجام عن مقصدٍ أنا الذى وجّه نفسَه اليه مختارا والقعود عن سفر

أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بإرادته

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيبُ به أن قِفْ ، فأوقف العربة ارتجالا وقد عرَتْه هِزَّة المحموم المختلَج ولعلها إحدى هِزَّات الأمل . واذا بغلام العجوز يناديه . أنا ذلك الذى هيأ لك الحصولَ على العجلة . قال وماتريد . قال أجرى على ذلك . قال وقد فارقتْهُ تلك الأَرْيحيَّةُ التى طالما كانت تهزه الى إسداء الجميل . أُعْزُبْ ولا كرامة . ثم ساط الجوادَ فانطلق يعدو وأراد أن يعوّض ما أضاعه من الزمن فى (هيدسان) فخط على جواده بالسوط ، فلقى عناء من الجرّ وكان قد خرج به غِبَّ[1] سماءٍ فكابد من الوحَل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ (سانت پول) وهناك نفَّسَ عنه فى نُزلها وقاده الى الإسطبل ووقف يعلفه . وأقبلت ربَّة المنزل فقالت ألا يأكل سيدى . فقال : ما أحوجنى

---

(١) أي عقب مطر

الى الطعام ، وتبعها وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، وأقبلت خادم فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجدلها فى نفسه محلا فأهوى الى الخبز فمضغ منه لقمة واحدة وكفّ يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له ماهذا الخبز مُرًّا ؟ وكان ألمانيًا فلم يَفقَهْ قوله ولم يُجبه . وانكفأ بعد ذلك الى الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شدّه وانطلق به الى مدينة (تنك) وكانت على خمسة فراسخ من (آراس)

فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سُبات

وإن لوجوه الأرض لتسلية تُرفّه عن النفس وتصرفُها عن التفكير ، ولكنه قد مرّ بألف وجه منها وما زال كاسِفَ البال وفاته قولهم ، من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعلّه كان يقارن فى نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشرىّ الذى لا يستقر فيه شىء على حال

فكل ما فيه قد جُبِلَ على الفرار منا. ألم ترَ إلى الليل والنهارَ كيف يتعاقبان، والى الشروق والغروب كيف يتناوبان. والمرء يرى ما يمرّ به فيُسرع باسطاً يديه ليمسكه فَيُفْلِتَه، وكل حادث ينتابنا انما هو ليةٌ في طريقنا لا تلبث أن تُسلِمَنا الى الكِبَرِ، وكلما أحْسَسْنَا تلك الهزّاتِ الخفيةَ وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب، دَعْ جوادَ الحياة الذى يستطرد بنا زماناً ثم يقف على غِرَّةٍ من راكبه، فيأتى من جوف الغيب من يُرَجِّلُهُ عنه ثمّ يُسَرِّحُهُ

وطلَع والشفقَ على مدينة (تنك) فى آن، وكان النهار قصيراً فانُطلق حتى إذا مرَّ برَصّاف يرصُفُ الحجارةَ، قال الرّصاف وهو ينظر الى جواده، أرى جوادا مكدودا ثم نظر الى الرجل وقال لعلك تريد (أراس) قال نعم، قال: إنك لن تبلُغَها على هذا الجواد، قال كم بينى و بينها، قال سبعة فراسخ، قال ان دليل البريد لا يقول بقولك، قال إنهم

يُصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنّى لك المضيّ فيه وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق (جارنس) ثم تعبُر النهر هناك فاذا بلغت (كامبلان) فتيامَنْ وأركب المحجّة الى (أراس).

قال أخشى الضلال في هذا الليل البهيم ، قال : أوَلستَ من أهل هذا البلد ، قال إني غريبٌ ؟ قال عُدْ إلى (تنك) واقضِ الليلة في نزلها واستبدل بهذا الجواد الذي نزح التعبُ قواه جوادا يُقِلُّكَ الى (أراس) قالَ استحال غير السفر في هذه الليلة ، قال استأجر جوادا ودليلا فعمل بنصيحته وقفل الى (تنك) وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل

وغاب في أحشاء ليل قد كسر على الأرض جناحيه وكان الطريقُ وعراً والعجلة تجلجل[1] فوق نُكَتِ[2] الأرض وهو فوقها مقلقلُ الشخص يُهيب بالغلام إيه إيه ولك ضعف

---

(١) أي تتحرك مضعضعة (٢) الحفر الصغيرة التي تنشأ عن وقع العصا أو العقب

الأجْر . فصاح الغلام لقد عُطِبَ العريش ، فكيف نمضي ونحن بين طريق وَعرٍ وليلٍ خليقٍ أن تصدّنا محارمهُ [(١)] عن السُّرى ، فهل لك أن تعود إلى (تنك) وأنا الضمين أن تبلغ (أراس) عند مُنبلَج الصباح . فقال أمعك حبل وسكين قال نعم ، فأهوى الى شجرة فاقتضبَ منها فرعا أقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله

وكان الوادى فى ظلامٍ دامس والضبابُ (دانٍ مُسِفّ [(٢)] فُوَيقَ الأرض هيْدَبهُ) ينبعث من التلال كأنه كِسَفٌ من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بياض وهبّت ريح البحر فى جوانب الافق فكان لهبوبها أشْبَهُ الأَصوات بصوت الأثاث عَبَثَ به عابث

فتمخّخ البردُ عظامَه وكان طاويا منذ العشيّة فذكّره القُرُّ والطوَى تلك الليلةَ التى قضاها منذ سنين ثمانٍ

---

(١) أى مخاوفه (٢) مأخوذة من قول الشاعر .

دان مسف فويق الارض هيدبه ❊ يكاد يدفعه من قام بالراح

يصف سحابا قريبا من الارض

فى ضواحى مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمسِ الدابر

وسرى الى سمعه جرَسُ ساعةٍ على بعد فقال للغلام ماهذه الساعة فقال إنها الساعة السابعة وسنبلغ (أراس) فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخَ ثلاثةٍ

ونزلت برأسه فكرةٌ لم يَسبِقْ لها فى النزول فقال ويل لى ما أضيَعَ ماجشَّمْتُ نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الأخلق بى أن أعلمَ عِلْمَ تلك القضية وموعدَ النظر فيها . ثم قَدَّر فى نفسه تقديراً لذلك الموعد وقال إن الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظرُ فى هـذه القضية لايفتقر الى الكثير من الزمن ، إن هو إلا سؤال وجواب فشهادة أوشهادتان ، فكلمة للمُدافع ، فحكم لايتعدى التغريم ، ولعَلِّى أبلغ الجلسة قبل الفوات . كل ذلك والغلام يسُوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة (مونت سان ألواى) وقد سطت غياهب الظلام

(ولْنَعُدْ بالقارئ إلى « فانتين ») فى الوقت الذى تجرى فيه هـذه الحوادث كانت (فانتين) رضيّةَ البال وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يَهُدُّ الحَيلَ

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذِى ، وعادها الطبيب فوجدها فِي فَوْرَةٍ من النفس فطلبتْ اليـه أن يُنذرها عند قدوم (مادلين)

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاهاً وجعلت تلهو بطىّ غِطائها طيّاتٍ مقدرة ، وتحرّك شفتيها كأنها تَذْرَعُ [1] بفكرها مسافةً من المسافات ، وقد غارت عيناها وجَمَدَ بصرُها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد .

وكانت تفتح بين الفينَةِ والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب فإذا دنت ساعة الشدة فإن مَدَداً من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الأرض

(١) تقيس بالذراع

وكلما سألتها الراهبة كيف أنتِ قالت : أَحمَدُ الله ولا أطلب إلا رؤية (مادلين)

منذ بضعة أشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه (فانتين) خدرَها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنتَ ترى (فانتين) وكأنها ظلٌ (لفانتين) أمّا اليومَ وقد فَنيَ جسمُها فقد كنتَ ترى (فانتين) وكأنها طيف (لفانتين) (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خَلقها أثر فى تشويه خُلُقِها فانظر الى تلك المرئيَّة التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعا ، كيف هبط أكثر لحمها فتجعَّدَ جبينها وَرَهَلَ[1] خدّها ، وشحَبَ لونها ، وبرز مَنكباها، وتجرّدت عظام نحرها ، وانبرت أعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طَلاهُ بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائعُ المشيب ، فأُفٍّ من المرض فانه يرتجل الشيخوخةَ وإنه لأنجبُ مطايا الكِبَر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن (مادلين) ولما

---

(١) أى استرخى اللحم

علم بغيابه حرّك رأسه حركة أعربت عن الأَسف

وكان (مادلين) يأتى فى عصر كل يوم وما تخلّفَ مرّة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطِّيبَةِ ، وقد كان الرجل طَيّباً

وعاودتها عند العصر فورةُ النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ثم اُستوت فَجْأَةً فى سريرها ، تلك التى كانت لا تنبعث لها جَارحة من المرض والهُزَال

ثم شبّكت ذراعين قد أنحلهما السَّقَمُ وأرسلت من صدرها تنهُداً خيّل معه الى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثِقلاً ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم إنسان . ولكنّ الباب لم يَرْمِها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر اليه ، وكأنها معلَّقَةُ الأَنفاس والراهبة لا تَجْرُؤُ على سؤالها . ثم ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تِلْوَ الساعةِ ولم يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راءٍ إلاَّ علم بما يجول فى فكرها

ولكنها صابرت آلامها فلم تَشْكُ ولم تتوجّع

وسمعتها الراهبة قُبيل الغروب وهى تقول بصوت خافتٍ . إننى هَامَةُ اليومِ أو الغد فما كان أخلقه اليوم بزورةِ الوَدَاعِ . ثم طَفِقَتْ تغنّى ، وكأنَّ صوتها نفحة من نفحات النسيم ، أغنِيةً عتيقة تدعى بأُغنية الأُرْجُوحة ، كانت تَتَغَنّم بها (فانتين) لإنعاس طفلتها فى عهدها الأول وقد كان صوتها يقطر حزناً وإيقاعها مشجياً لا يملك السامع معه الدموع من أنْ تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبةُ التى دَرَجَتْ على الزهد والتّقشّف

ولما أَعْتَمَتْ عَلتْ وجهَها آياتُ الذهول وأرسلت الراهبةُ صَبِيّةً تسأل عن (مادلين) فعادت على الأثر وأسرّت لها أنّ (مادلين) قد سافر وحيداً فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خَلْق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق (أراس) وزعم قوم أنه قد ركب طريق (باريس) وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره

ماينمّ على باطنه . وبينماهما يتسارّان على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه وإذا (بفانتين) وكأنّ نافضاً من الحمّى تمازجه حركةُ المعافَى فى بدنه قد حرّكها فى سريرها

فهبّتْ رغم ذلك الهزال المروّع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرْفقيها وأرْهفَتْ للسمع أذنيها وفرّجتْ برأسها مابين سِجفَىْ كِلّتها[1] وصاحت بهما إنكما تخوضان فى حديث وإن (لمداين) فيه لشأناً . ونادتهما بصوت تخالطه البحّة والخشونة كان من أثره فى نفسيهما أنْ ظنّتا أن المتكلم رجل من الرجال، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما مالكما لاتنطقان . فقالت الصبيّة بصوت خافت إن البوّابة تقول إنه لايعود الليلة . وقالت الراهبة على أثرها إهدئى أنتِ ونامى . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرةٌ من الأسى ، إنه لايعود ، أراكما تتسارّان فى شىء تحاولان كتمانه عنى ولابدّ لى من الوقوف عليه فألقت الصبيةُ فى أُذن الراهبة كلماتٍ فاحمرّ وجه

---

(١) الناموسية

الراهبة وهالها أن تكذب ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت في نفسها إِنْ أنا صدّقتُها في مثل هذا الموطن فقد قتلتها وإِن أنا كذّبتُها فقد قتلت كرامتي . ثم لبثت غير بعيد . وقالت (لفانتين) بصوت المتمكن من نفسه إِنّ (مدلين) قد سافر منذ اليوم

فاُستوت المريضة في سريرها وسَرَتْ بنفسها عقبة من السرور ومرّت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت إنه سافر ليرى (كوزيت) ثم ضمّتْ يديها واُستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلي . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة الآن حلا لي النوم إمضاءً لأمركِ فلا تُنزِلي أمري على الجُرأةِ عليك إذا رفعتُ صوتي في الحديث ، فما فاتني أن ذلك كان خروجا عن أفق الأدب وإنما استخفني السرور . ثم أخذت مَضجعَها بعد أن لثمتْ صليبها وقالت لها الراهبة إهدَئي ونامي فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التي هالها وَفرُ العرقِ الناضح من جسم المريضة

وأنشأت (فانتين) تقول : سافر إلى باريس وما كان أغناه عن ذلك و (مونت فورمى) على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرّي مفاجأتي بذلك النبإ السارّ ، فقد قال لى بالأمس حين جرّ الحديث الى ذكر (كوزيت) إنني سأراها قريباً وأخذ توقيعى عَلَى كتاب الى أصحاب النزل ولا أحسبهم إلا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عني (كوزيت) وقد وُفُّوا أُجورَهم تَخَبْسُها عنى افتيات عَلَى أولى الأمر ، فلا تُومِئ الىّ بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلها وسعادةٍ لا حدّ لها أوَلَسْتُ خليقة بعد أَعوام خمسة أن أرى وجه طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة الّا صبيةً حسناء ولقد صَبَرْت على بعدها طِوالَ السنين ، وللصبر حدٌّ ولو أنّ لى عمْرَ الأبد لهان ذلك البعاد

فما أَطيَبَ عُنْصُرَ ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لإنقاذ طفلتى ولعلّه يعود فى الغد من (مونت فورمى) وهى بلدة قد قطعْتُ طريقَها عَلَى قدمى

منذ عهد طويل فكان بعيد الشُّقة عليّ وإن كان يَسيراً عَلَى العَجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها . فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة أنه سيعود بإذن الله فى الغد . فقالت سأرى بُنَيَّتِي فى الغد إنّ الأملَ بلقائها قد أَلبسنى ثوب العافية فلستُ مريضةً كما تزعمون ولكنى مفتونة ، فلو أنى دُعيت الساعة الى الرقص لأَبدعت فيه . وكانت فى هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قَسِماتُ وجهها فكنتَ ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمّعَ من البَسمات وما أَشبه سُرُورَ الأُمهات بسرور الأطفال

ثم ألقت برأسها عَلَى الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح فأطبقت الراهبة الستائر على كِلَّتِها رجاء أن يأخذها النُّعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يُحِسَّ حركة فى المكان فعزَا ذلك الى نوم المريضة نَخَافَتَ[1] من مشيته ودنا من سريرها

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه

وأزاح الستار فرأى علىَ ضوء الساهرة [١] وجها هادئا وعينين لم يُرَنّقهُمَا النوم فابتَدَرته قائلة : إنهم سَيُنيمُونَها هنا بجانبى عَلَى سرير صغير . فعجب الطبيب من أمرها وظنها تَهْذِى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الأمر . ثم عاد إلى سرير المريضة . فقالت : إذا تيقظت بُنَيَّتِى ألقيتُ عليها تحيّة الصباح وإذا نامتْ صنع بي تنفسُها الهادِئُ مالا يصنعه الدواء ، فأتَّجِهُ إلى العافية . فقال لها الطبيب : يَدَكِ فمدتْ يدها وهى تبتسم وتقول : ألا ترى أَنى نجوت ، فَدُهِشَ الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانا . فقال إنه من صنع السرور الذى أدخله عَلَى نفسها الأملُ بلقاء بنيَّتها ثم أوصى بالسكوت وأمر بدواء يُلَطّفُ من حِدّة الحمّى إذا هى عاوَدتها فى ليلها وقال للراهبة عند انصرافه إذا أسعدها الطالع برجوع (مادلين) فى الغد فقد نجت

وكان من سرور مسح من مرض ، وإنه لسرّ من

---

(١) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة

الأسرار التى سيكشفها العلم فى مقتبل الزمان

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (بآراس) وسرّح الجواد الذى أستأجره وقادبنفسه الجواد الأبيض الصغير الى الإصْطَبْلِ ثم عاد الى النزل وجلس فى إحدى قاعاته وَارْتَفَقَ [1] على مِنْضَدَةٍ وكان قد أستوفى عمْرَ يوم وليلة فى سفر كان يُقَدَّرُ له نصْفَ يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القَدَرِ

ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلتْ لك فيها آيات الرضى . ودخلتْ عليه فى هذه الاثناء ربّةُ النزل وقالت أيرغب سيدى فى العشاء والنوم ؟ فأومأ لها برأسه إيماءة الرفض ، ودخل على أثرها غلام الإصْطَبْلِ وقال إن جوادك مكدود ، فأبتدره قائلا أَوَليس فى طوقه السفر غدا ، قال إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين ، قال أين مكتب البريد فقيد اليه فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى (مونتراى سيرمير) فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور

(١) اعتمد بمرفقيه

لمقعد السائق لا يزال خالياً فاجيب الى طلبه ودفع النفقة وا نذرَ بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكَبُرَ عليه أن يسأَل المارّة ، فعبر النهر وَخلَصَ الى زقاق ضيق فضلَ السبيلَ ومرّ به فلاّح يحمل فانوساً [١] فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه إنسان ، ولما أَمِن ذلك سأله أين دار المحكمة ؟ وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال له يَلوح لى أنك غريب فاتّبعنى فان طريقى عليها . فانطلقا حتى إذا كانا على كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدّثه : إن كنت ربَّ قضيّة فقد جئتَ بعد الفوت ، على أنى لا أزال أرى ضوءاً بنوافذ قاعة الجلسة ولعلها لم ترفع ، فان كنت شاهداً فقد جئت فى الوقت . قال إنما جئتُ لأستشارة مُحامٍ فقال الفلاّح هاك البابَ فاذا دخلت فارْقَ الدّرج فمضى الرجل على إرشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة

---

(١) الفانوس فى الأصل النمام وقد استعمل للشمع لانه ينم عليه

قد غصّت بالناس وطائف من المحامين هنا وثَمَّ يتهامسون . وإن رؤيتهم وهم في ملابسهم السود لمما تنقبض لها النفس ، فقلّ أن تخرج كلمة من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجدُ ريح البِرّ فلا يكاد يسمع إلا نعيبا يؤذن بحلول العقاب

فاذا مررت بهم حسبت أنك أمام خليّة دونها خلايا النحل — خليّة تطنّ فيها العقول طنينا حتى ليؤتّى لك وقد أخذتك الوحشة أنك في معبد مظلم تعمُرُه الأرواح . وكانت القاعة على ترامي أطرافها لا يُضيئُها إلاّ سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شدّ منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراجُ ، فلم يستحي أن يسأل أوّل محامٍ لقيهُ فيم القوم ؟ قال قضِيَ الأمرُ ، فارتاع وقال قضى الأمر ، نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال ألعلّك قرابة (١) له قال لاشأن لى ولا قرابة . فهل حكم بالادانة ؟ قال استحال غير ذلك . قال أتراه سِجنُ الأبد . قال نعم ، قال بصوت

(١) أي قريب

لا يكاد يُسْمَعُ لقد عرِفتْ إذاً شخصيتَهُ . قال أيةُ شخصيةٍ
لقد كان الأمر جليّاً ، امرأةٌ قتلت ولدها فَحقّ عليها العقاب
قال أعَنِ امرأة تتكلم ؟ قال نعم . قال ماهم وقد فرَغُوا من
أمرها لا يزالون فى مقاعدهم . قال إنهم ينظرون منذ ساعتين
فى شأن آخر . قال وماعسى أن يكون . قال مجرم عائد
من أرباب السوالف وأضياف السجون لا يَحْضُرُنى اسمُهُ
قد أخذوه بسرقة جديدة ولعلهم لا يتلوّمون فى الحكم
عليه ، فَسَحْنَتُهُ سَحْنَةُ الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى
النظرةُ اليه مؤونةَ التحقيق فى أمره ، قال ألا يتسنى لى
الدخولُ ؟ قال إن القاعة مكتظّة بالناس وقد رُفِعَتْ الجلسة
فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول في غِمارِ الناس قال
ومن أين أَخْلُصُ اليها . قال من ذلك الباب الكبير . ثم
غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكأنّ إبراً من الثلج
ونِصالاً من النار قد اعتورتْ فؤادَه وخزا وطعنا ولم يدرِ
أكان ما أتاها الألمُ أم السرور . وجعل يقترب من الناس وهم

قنابلَ[1] قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون إنّ هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقةُ فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ولم يبق إلا دفعُ المحامى وردُّ النائب وربما استوْفى ذلك من الليل نصفَ عمره ولا نظنه يُفلِتُ من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد أديبٌ ينظم الشعر ويعرف كيف يُوَفى الاتهام حقَّهُ . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله متى يُفتَحُ ، فقال لايفتح ، قال كيف والجلسة على وَشْكِ الانعقاد بعد رفعها قال قد عُقِدَتْ الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها ، قال أَلاَ أجد فيها مكانا أصُفُّ فيه قَدَمىَّ ، قال لا ، ثم عطف قائلا إن خَلْفَ الرئيس مكانا أومكانين لا يُؤْذَنُ بحلولهما لغير الخاصة . ثم ولاّه ظهره . فنكس الرجل رأسه ومشى مِشْيَةَ الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عَوَانٍ ثم أخرج من جيبه بَيْضَاء[2] خطَّ فيها ، مادلين شيخ (مونتراى

---

(١) جماعات جماعات (٢) أى ورقة بيضاء

سير مير) ثم صَعِدَ الدَّرَجَ وشَقّ الصفوف وأتى الحاجبَ وقال له بصوت الآمر إِحمل هذه الى الرئيس . فأخذها الحاجبُ وألقى عليها نظرةً عَجْلى ومضى طائعا

منذ سنين سبع و (مادلين) نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأتْ شهرته جوانبَ الأُفق فجازت حدودَ بلده الى ما جاوره من البلدان فتعالَمَ [1] الناسُ فضله وأخْصَبَ به الزَّمانُ والمكان ، فنَمَتْ فى عهده صِناعة الخَرَزِ الأسْود وكانت له يَدٌ على الصناعات فمدّ المصانع بالمال حتى حُسد بَلَدُه عليه

وكان رئيسُ الجلسة فى (آراس) ممن يُعظّمون (مادلين) ويُبَجّلونه ، فلم يكد يحمل الحاجب اليه رقعته حتى أذِنَ له فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يَمَسُّ الأرضَ بِجَبْهته وحتى تبيَّنَ (مادلين) إعظامَه فى حماليق عينيه وقال له ليدخلْ سيِّدى غير مأمُورٍ . ومشى أَمامه مِشية العبد القِنِّ ذلك الذى كان يُوَلِّيه ظهره غير مكترث له ثم مدَّ له

---

(١) أى علم

يده برقعة الرئيس فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على ضوئه ، أن رئيس المحكمة بآراس يهدى تحية يمازجها الإجلال الى الشيخ (مادلين)

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيداً فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسرّ النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر . وذكر قول الحاجب عند انصرافه : إنك ياسيدى فى قاعة المجلس ، فاذا أدرت ذلك الزرّ النحاسىّ الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى — ففعلت فى نفسه تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادفه فى ذلك الممشى وما مرّ به فى تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع أشتات نفسه فلم يغن شيأ ، وتضعضع فى ساعة هو أحوج مايكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة . وكم قطع فى مثلها سلك التفكير وملكت على المرء

المذاهبُ فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فَيَدِينُون ويبرّئون . وجعل ينظر نطر الأبله الى تلك القاعة الساكنة المُرَوِّعَة التى يُقْضَى بها على أرواح العباد . وكان به وهو ينظر إليها أن اسمه سوف يُدَوِّى فى جوانبها وأن المقدور عليه سوف يُحلق فى سمائها

وجعل يتنقّل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول تُرَى ما هذه القاعة و تُرَى من أنا ؟ وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجّاتُ المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر ألماً ولم يُحِسّ جوعا ، ودنا من إطارٍ أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطّها (چان نيكولا) (باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء النواب والوزراء الذين اُقتضبوا من دورهم اُقتضابا وسيقوا الى السجن ولو أن امرأً تفرّس فيه لأدرك للوهلة الأُولى أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثا ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكّر فى (فانتين) و (كوزيت)

وانفتل وهو في تلك الغمرة فأخذ بَصَرُه قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدْمَنَ اليه نظرا هادئاً ثم بان فيه الخوف ثم أطَلَّ من محاجزه الفزعُ ثم تلاه الجزع فندِيَ بالعرق جبينهُ ، وأتى على أثرِ ذلك بحركة يُخطِئها الوصف

حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه (ما الذي يحملك على كل هذا) ثم انفتل ثانياً فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة الى ممشى طويل جمّ المُنعَطفَات كثير اللّيات به طائفة من النوافذ تقطعه درَجٌ للهبوط ، تُضيئهُ سُرُجٌ ضئيلة النور كأنها السواهر

فتنفّس الصُّعَدَاءَ واصغى فاذا هو في سكون الرموس فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب في أحشاء تلك المُنعَرَجات وقف يتسمّع للمرة الثانية فلم يُرَوّعهُ مُرَوّع ، فجعل يُنفّس عن نفسه كَرْبَ العَدْو فاسند ظهره إلى الحائط فوجد مسّ البرد من حجارته فاعتدل مقفقفا

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هـذا الظلام تهيبًا للبرد والهواجس جعل يفـكّر. على أنه قد فكر فَحَمَةَ الليل وَسَرَاةَ النهار فلم يسمع غير صوتٍ واحد يناديه . وا أسفاه ! ومرَّت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوَّه آهةَ الرجل الحزين ، ورَجعَ أدْراجَهُ . وجعل يمشى مِشية المتثاقل كأن لا حقا لحق به فى فراره فَصدَّهُ عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التي برَحها وأخذ نظرهُ قبضةَ الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اُندفع وهو لا يدرى الى الباب وأهوى بيده الى القبضة فأدار زِرّها فاذا بالباب وقد اُنفلق عنه ، وإذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوةً وأقفل خلفه الباب ووقف يُنْعِمُ النظر فيما يرى

وكانت قاعـة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيجُ وتارة يغمرُها السكونُ قد طُرِحتْ

فيها قضية جانٍ تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ويتمشى في أثنائها انقباض في الصدور

وفي الجانب الذي وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث ، عليهم أردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينيه

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخلاق[1] الثياب وقد نثر بينهم محامون في شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقذار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجواخ صفراء كانت في ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدي بطلاء من القار ، تضيء لهم سرج من سرج الحانات قد علقت في مسامير مرشوقة في الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الاضواء

(١) الثياب البالية

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس أقيمت فيه شمعة

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يُوَلِّدُ في نفس الناظر شعورين من وقار وإكبار، شعوراً بعظمة المخلوق ومظهره القانون، وشعورا بعظمة الخالق وَمَجْلاَهُ العدلُ

وقف (مادلين) ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مُصوّبة إلى هدف واحد، مقعد من الخشب بجانب باب صغير في طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تَزْهَرُ

وكان هو الرجل

رآه (مادلين) ولم يُجَشّمْ عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد. وقد خيّلَ إليه أنه يرى فيه نفسه ولكن في سنّ عالية، وما كان الشبه بينهما قاصراً على السّحْنَة ولكنه كان في الموقف والمنظر وذلك الشعر القاقّ وذلك النظر الشّزْرِ الذي لا يفارقه القلق، وتلك الأهدام

البالية التى كان يجول في أمثالها يوم دخل مدينة (دنى) يحمل فى نفسه ضباً من الضّغْنِ [١] ويخفى فيها ذلك الكنزَ الذى اُقتناه فى أعوام سجنه

ذلك الكنزَ الذى جمعه على بلاط السجن من وَحْى الشر ، لا من يتيمات الدُّرّ

فاُرتعد وقال اللهم غفْراً ، أكذا تكون العقْبَى ؟ وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أوجازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واُسْتِيحَاش

ولما فتح (مادلين) البابَ صرّ صريراً نبّه القضاة ففسحوا له مكانا ولفت الرئيسَ فحياه ، وحياه على أثر المدعى العام ، فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمِه

قضاةٌ وكتّاب ، وَشُرَطٌ ، وجمع مشرئبّ الأعناق على ظماٍ إلى الاستطلاع . إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة وها هو ذا يشهده اليوم

---

(١) أى يحقد حقداً شديدا

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ، ولكنّه من صنع الحقيقة . قُضاةٌ وَشُرَطٌ وجمع من الأحياء قد رُكّبُوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضى فى أبشع ألوانها وأروعِ مظاهرها ، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح فى أغوار نفسه إنَّ هذا لن يكون

ولعبت به الاقدار — وأرته من تهاويلها ما زاد فى خبال عقله حتى كاد يُخَالَطُ فيه . فرأى كأنَّ هناك رجلا قد شق منه وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير (چان فالچان)

ثم رأى وياهول ما رأى

رأى شبْهَ مسْرَحٍ قد قام فيه شَبَحُهُ بتمثل أبشع أطوار حياته

وقد أُخِذَتْ لذلك التمثيل عُدّتُه ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حكم فيها ، وكأن القضاة هم قضاتُه وكأنّ الأحراسَ هم الاحراسُ ، والحضورَ هم الحضورُ إلا

أنهم قد رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ولم تكن تزينُ قاعاتِ الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لِشقوته فى يوم لم تشهده عينُ المسيح

وسقط على كرسي كان خلفه سقوط الحجر فزعاً من أن تقع عليه العيون

وأغيث بشبهِ عمود من الأوراق المكدسة فوق مِنْضَدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرَى من حيث لا يُرَى ثم جعل يتمكن من نفسه شيأ فشيأ حتى وضحت له الأمور على حقائقها وخرج من الذهول الى الرشد

وكان همه أن يرى (چافير) فرَمى بَصَرَه بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك الظلام الذى لم تُرَقّقْ من حواشيه تلك السُّرُجُ

وساعةَ دخَلَ كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحَذ الأسماعَ إلى الإصغاء وقد مرّت على مخاصمة المتهم ثلاثُ ساعات ، والحضور يرَوْنَ أمامهم رجلاينوء شيأ فشيأ بِثقل

ذلك الشَّبَهِ الغريب الذى أوشك أن يَحِلّ فى لباسه . ولقد

كان الرجل مجهولا ، كأن أحَدَ أولئك البائسين الذين تنتشرُ

على وجوههم طبقات من البَلَه أو من تَصَنُّعَ البَلَه ، فهو إما

أن يكون من أشد الناس بلهاً أو من أوفاهم قسطاً فى الذكاء

كان أفُقِيّاً[1] قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه

من شجرة فى بستان (بيرون)

فياترى من هو هذا الرجل ؟

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت نجاتٌ من

النور فى ظلماتِ ذلك الأُفق ! افق التحقيق

وقال الاتهام إننا لم نقع على سارق هيّن الأمر يختلس

الثمر أو أحدِ أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فارٍ

وقبضنا على شاطر عيّار من قُطّاع السبيل وفاتكٍ من شر

الفتّاك ، ذلك (چان فالچان) الذى جدّ الشُّرْطةُ فى تعقبه

منذ عهد طويل

---

(١) يضرب في الافاق

ذلك الذى استوفى عُمْرَ العقاب فى سجن تولون وقطع يوم سُرّح منه السبيلَ على غلام من سكان (ساقوواى) اسمه (بيتى فيرجى) وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا أرْجِئُ أخذَهُ بها حتى يثبت لنا شَخْصُهُ

وقد ركب هذا الفاتكُ جريمة جديدة فهو إذاً ممن تعودوا الإجرام ، فخذوه اليوم بجريمته الجديدة

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتَّهم أمام هذه التُّهَمَةِ وذلك الإجماع من الشهود

وتبدر منه بوادرُ من الحركات والاشارات تأويلُها النكرانُ ، فهو وان خانه النطق ، أو تعَصَّى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرْعِهِ إلى عقبِه خطيبٌ ينادى : أنى مأخوذ بجريمة غيرى ، وآفتي فى ذلك شبهٌ غير ميمون

وقد وقفت وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، رقد قبضت عليه يد لا تفلته وأنشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وغبرَتْ تمشى اليه التُّهمة على جسر من ذلك الشَّبَه المشئوم ، وكان قَلَقُ الجمهور عليه أشدّ من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالإِدانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم

فيا تُرى من كان ذلك الرجل ومن أَيَّةِ طينة قدر كّبت تلك البلاهة أتنزلُ البلاهة بالناس الى هذا الحد ، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع . أتُرَاه قد جاز حدود الذكاء أم نزل الى أحط مراتب البله

تلك أسئلةٌ قد شطَرَتْ الحضورَ شطرين ، وسرت عدوى ذلك الى المحكمين فقد كان من أمره ما يزعج وما يَشغَلُ البالَ ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كَان من غموضه

جوّد المحامى فى الدفع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم ، وهى لغة قد أَلِفَتها المحاماةِ زمناً طويلا تزعم أنها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها أجيالا فى باريز وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم الى لغة

دراسية ولِعَ بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة وأشباههم. راقهم منها لفظٌ يرنّ في الأُذن رنيناً يمازجه الجدّ، وأُسلوبٌ يمشي الى السمع مِشية تصحبها الجلالة

فكانوا إذا ذكروا — الزوج — قالوا البعل — والزوجة — قالوا الحليلة — والملك — قالوا ربّ التاج والصولجان

وإذا ذكروا — باريز — قالوا امّ الفنون ومَهْدُ المدنية. فالمدعى العام في لغتهم — خطيب الاتهام المِصْقَع والمرافعة — الصيحات التي تسمعها المحكمة، وعصر لويز الرابع عشر — العصر الكبير — والأُسرة المالكة — دماء ملوكنا الكريمة — والقائد — الجنديُّ العظيم — وخطأ الصحف السيارة — الكذب الذي تَنْفُثُ سمّه في أنهارها

بدأ المحامي دفعه بتفسير سرقة التفاح وصَعُبَ عليه أن يمرّ فيه بذلك الأُسلوب الرائع، ولا عجب فقد وقع ذلك (لبوسيه) نفسه، فقد أرْتِجَ عليه وهو يؤبّن ميتاً عظيماً

فَفزِعَ إلى الاحتماء بوصف دَجَاجَةٍ سَنَحَتْ له وخرج من مأزِقه ذلك بين التهليل والإعجاب خروج الظافر

أثبت المحامى أنه لم يقم دليلٌ محسوس على سرقة التفاح لأن المتهم لم تأخذه عينٌ وهو يَظْهَرُ[1] الحائطَ ويعالج كسرَ الفرع ، ولكنه فوجِئَ وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال الغصين تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجده مطروحاً على الأرض فالتقطه ، ولم تأتونا بما يَنْقُضُ ذلك ، ولعلَّ أحدَ السابلة قد مر بذلك البستان ، فتَسَوَّر الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أحسَّ خَطَراً فألقى به على الأرض ، ونجا بِحُشَاشة نفسه

لقد وقعت السرقة ولكنَّ المتهم لم يكن بصاحبها إنكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعوَّدوا الاجرام (وفاتَهُ أنَّ ذلك الأمر الذى سَلَّم به فى عرضِ دِفاعه لم يبلغ فى التحقيق مبلغ اليقين) فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم ثم مضى فى دفعه وقال — إنه كان مقيما فى (فافرول) يرترق

---

(١) يعلو

من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتييه) وأحسبهم قد حرفوه الى (چان ماتييه)

ثم مرّ بشهادة الشهود مَرًّا ولم يدفعها، وكان يتكئ فى أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى الى قوله: فلو سلمنا أنه هو (چان فالچان) فهل يقوم هذا دليلا على أنه سارق التفاح، إن هى إلا قرينة من القرائن، وما أبْيَنَ ما بينها وبين الدليل القاطع

لقد أساء المتهم إلى نفسه بذلك الإنكار المطرَد، فأنكر كل شئ — أنكر جرائمه وشخصيته وكلّ ماصُوّب اليه فى ماضيه وحاضره، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطفَ القلوب

نصح إليه المحامى أن يُقلع عن ذلك الانكار فأبى وأصرّ وظنّ أنه يخرج من تبَعَةِ كلّ شيء إذا هو أنكر كل شيء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ومرّ به من صنوف البلاء فى السجن وبعد السجن مايبلّدُ الذهن السليم على أن طريقته التى جرى عليها فى الدفع عن نفسه لم تكن مُبرّرَةً للحكم عليه

وختم المحامى دفعه بالتضرع إلى المحكّمين أن يُنزلوه منزلة الفارّ من السجن لا منزلة المجرم العائد

ورد المدّعى العام على المحامى ردًّا رقّ مبناه وخشن معناه . شأن أمثاله من المدّعين ، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم بنزول[1] محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته ، وسجّل عليه ذلك النزول ، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعّمت من حججه وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام وأنحى باللوم على تجرد المدرسة الروائيّة من روح الشرف وكانت إذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى — وهو على شىء من الحق — جريمة (جان ماتييه) أو (ﭽان فالـﭽان) إلى تأثير ذلك الأدب الخلاّب الذى راع العقول

وانتقل بعد أن قضى لُبانته ونضبت مواد القول إلى

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه فان التنازل لا يكون الا فى ميدان القتال أو بين اثنين

(جان فالچان) نفسه فأفاض فى وصفه إفاضة كانت أشبه شىء بما جاء فى قصة (تيرامين) ولم يكن لذلك القول مكان فى تلك المأساة ولكنه أسلوب طالما لجأت إليه البلاغة القضائية

وما زال يَقرعُ الأسماع بتلك القوارع حتى أدخل الرُّعب على نفوس القضاة والحضور ، ومرّ المدعى فى ردّه بتلك الكلمات الخلابة التى استثارت فى صباح المخاصمة حماسَ الصّحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة

وكَان مما قال فى (چان فالچان) — رجلٌ شأنه ذاك طريد جوّال . لا مرتزق له . تعوّد الاجرام ، ولم تُفلح السجون فى تقويم اُعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يومَ خرج منها على الغلام (بيتوفرجى)

وقُبض عليه بعد ذلك متلبساً بالسرقة على قيدِ خطوات من الحائط الذى ظهرهُ ، وفى يده ما سرق ، فأنكر التلبُّس والتّسوُّرَ والسرِقةَ ، وأنكر حتى شخصيته

وفى يدِنا مائة دليل ودليلٌ على ذلك ولا نريد سَرْدَها — دع أربعة من الشهود على رأسهم (چافير) كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثَلاَثَةً من أخدانه الإجرام ، فكيف يدفع إجماعَهُم على معرفة شخصه ، إنْ هو إلا رجلٌ جامدُ الشعور ، غليظُ الكبد

وقد كَان المدّعى يخطب والمتهم مُلقٍ بسمعه وقد فَغَرَ الدهشُ فَاهُ ونال منه العجب مما يسمع — وكان يحرّك رأسه يمنة ويسرة كلما اُشتدت لهجةُ الاُتهام فى تلك المواطن التى تَعْجِزُ فيها البلاغة عن إمساك سيلها ، فيترامى بموجاتٍ من سبّ وتحقير ، كانت تَلُفُّ المُتهَمَ لَفَّ العاصفةِ . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضربٌ من اُحتجاج فصيحً فى صمته بليغٍ فى حزنه

وقد لفت المدعى القضاةَ الى ذلك الموقف موقف البَلَهِ الذى أخذ المُتَهَمُ نفسَه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل الرحمة ، فلم تَجُزْ حيلته علينا وكشفت لنا عما كَان يَخْبوءُهُ

فى غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل

ثم وقف المحامى وهنأ المدعى ، وأطرى خطبتهُ التى جازت حدّ الاعجاب ثم ألقى بكلمات حضرته وأخذ يتضعضع حتى فقد كلّ تكافؤ له ، وحتى شعر كأنّ الأرض تميد تحته ميدانا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس إلى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، أعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع ، فأُعيد السؤال ؟ وأظنّه سمع فى هذه المرة ، فقد رُؤِىَ فهمُه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سُبَاتٍ .

فجعل ينفض عنه الكسلَ ويدور بنظره يحدّق فى الحضور حتى وقفتْ عينه على المدعى العام فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض

كنتُ عاملا فى صناعة النُّحاس فى باريس لدى السيد

(بالو) وكان العمل شاقا . يَعْمَلُ العامل طرفى النهار في هواء طَلْقٍ في أفنية البيوت ، أو حُجَرٍ مستطيلة سقوفها من الخشب ، ولا يُتاحُ له أن يعمل مرة في مصنع مُقفَل لا يأذَنُ للهواء

فاذا كان الشتاء ووجد العامل مِنّا مَسَّ البرد وتخوّف على أعضائه اليَبَسَ ، نزع الى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدّفء ، فَيُحفِظ [١] هذا أصحابَ المصنع علينا ويقولون إنه وقت ضائع

وما ظنك بعامل يَصْهَرُ الحديدَ وهو عَلَى أرض من الثلج إنْ هذا إلا فناء عاجل . فترى العامل وقد أخْلَقَ كما يَخْلِقُ الثوبُ ، ولبس في صِباه لباس الهَرَم

ولا يكاد يدرك الأربعين حين تدركه السّنّ فتَنْزَفُ قُوَاهُ ويُرْغَبُ عنه ويمسي سُخْرِيَةً لشرار العمال ، فَيَنْبزُونَه بأقبح الألقاب . فكانوا يدعونني وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز العاجز

---

(١) يغضب

وكانت وظيفتي في يومي ثلاثين صلديا . وما حَظّ من أجري في دعواهم غيرُ السنّ . وكانت لي ابنة تكدح هي الأُخرى في طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدُنا يُفيء علينا بعصارة تمسكُ الحياة

تبذل يومها في الكدّ ماتتقي المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جاثمة في مهابّ الانواء . وكان عليها أن تغسل ولو جَمَدَ الماء

فإن من الناس من لايجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائماً علَى يديها يتنجّزها فاذا أنس منها تريثًا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب إلى سواها

فمافتئت المسكينة تطوى ساعاتها مُضطربة في المغاسل بين الحارّ والبارد — دع ما كانت تعاني من مضارّةِ زوجها لها ، حتى أتي على نفسها الشقاء

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يَهدِرُ بصوتٍ جهير أبحّ أجشّ ، وكنتَ تطالعُ في جفوةِ لفظه وثورةِ قوله ، سلامة الضمير ونقاءَ الجنان

وقد انتابه فُوَاق[١] كان يحبس أنفاسه، فجعل يستعين على تأدية ما في نفسه بحركات كنت تخاله معها حطاباً يشق جِذعاً من الجذوع

وما كاد ينتهي حتى أغرب الجمهور في الضحك، فلبث ينظر إليهم وهو يجهل مَثَارَ ذلك — وما نَشِبَ أنْ فعلَ شَرْوَاهم[٢] وشاركهم في ضحكهم، فكان مشهدا مؤثراً تعلوه الكآبة

فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما، فذكّر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فَزِعَ المُتَّهَمُ الى شهادته لا يُعلَم له مقرٌّ منذ أفلس واُختفى

ثم التفت الى المتهم وقال له : أعرني سمعك واعلم أنك فى موطن أنت فيه أحوجُ ما تكون الى التفكير، فقد انصبّتْ عليك الشبهات، وقامت حولك دلائل لا تَلْبَثُ أنْ تجُرّك الى سوء المصير : فأجب إجابة صريحة عن أمرين

(١) الزغطة (٢) أي مثلهم

هل ظَهَرْتَ حائط البستان ؟ واقتضبت فرع التفاح ؟ ؟ هل أنت (چان فالچان) ؟

فحرك رأسه حركة تُعْرِبُ عن فهم ما أُلْقِيَ عليه ، واتجه الى الرئيس وقال :

أمّا عن الأمر الأول ، ثم سكت وألْقَى بنظرة على قلنسوته ، وأخرى على السقف ، فَحَمِيَ المُدّعِي العام وقال له :

ويل لك ما لك لا تجيب على ما يُلْقَى عليك ، إنَّ اضطرابك لَيُدِينكَ فلستَ (بچان ماتيبه) كما تحاول أن تكون وإنما أنت ذلك المجرم الفارّ (چان فالچان) فقد ذهبتَ الى (إفرون) ووُلدتَ فى (فافرول) وكنتَ بها مُشذّباً للشجر ، وظَهَرْتَ حائِطَ بستان واقتضبتَ منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتي اذا انتهي من خطابه استوى قائما وصاح به :

مَا أَخبثَكَ أيُّها الرجلُ ! وهذا كلُّ ما أُريد أن أقوله لك ، وقد كان يُعوِزُني القول

لستُ من السَرَقةِ ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب ما يتبلّغ به فى كل يوم

إنى أتيت من (إلى) فخرجت أضرب فى البلاد غِبَّ سماء ، وقد كسا الغيثُ وجوهَ الأَرض ببساط من الرمل الأَصفر ، هاجه إنحاحُ السيّل من بطون المناقِع (١) وطَمَرَ به الزرع حتى ما تقعُ العين عَلَى غير أعواد دقيقة من الحشائش على عِطفَىْ الطريق

وكنتُ التقطتُ من الأَرض فرعا مهشوما به تفاح — إلتقطتُهُ وما كنت أدرى أنى ألتقطُ الشقاءَ . وقد لبثت فى السجن ثلاثة أشهر وأنا أُنقلُ من مكان إلى مكان وهذا مبلغ ما عندى من القول

إنهم يرمونى بالتهم ويطلبون منّى دفعَها ، ويدفعنى

---

(١) المستنقعات

الحارسُ عَلَى طيبة فيه إلى الكلام ، يُغْريني بذلك همساً ، وأنا لا أدرى كيف أُفْصِح عما فى نفسى . إنى لم أُصِبْ من العلم ولم يُثَقِّفْنِى مُثقِّف ، فأنا فقير الإدراك ولكنهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى

أُفٍّ لكم لقد ذهب بكم المكر إلى حد القطع بمعرفة المكان الذى وُلدتُ فيه . عَلَى أنى لا أزال أجهل مولدى

وليس لكل من يَهْبِط إلى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تَهَيأ ذلك لَلاَنَ العيشُ وطابت الحياةُ ، وأكبر ظنى أنَّ والِدىَّ قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك

وَجلُّ ما أذكره أنى كنت أُدْعى وأنا حَدَثٌ (بالصغير) واليوم ادعى (بالشيخ) ولا أعرف لى اُسماً غير هذين ، فأوّلوا قولى مابدا لكم أن تؤوّلوا

ولا أكْذِبُ الله فقد كنت فى (الافرون) وكنت فى (فافرول) وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من

أهل السجون . لقد أعنتموني بترّهاتكم فعلامَ يتعقبني الناس كما يتعقب الموتور واتِرَه

فاتجه المدعى العام إلى الرئيس وقال :

لقد أحكم المتهم تمثيلَ ما أخذ نفسه به من التبله ، يحاول إيهامنا أنه أبله ، ولكنّه يعالج المحال بذلك الإنكار وأظن أن المحكمة لاترى بأساً في مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه

فقال الرئيس اني أذكر المدعى العامَّ أن (چافير) وهو كبير الشُّرْطَة قد دعاه عملٌ من أعماله في المقاطعة المجاوِرة فأذِنّا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض

فقال المدعى لم يغب عنى ذلك ولكنى أذكّرُ المحكمين أن (چافير) قد شهد قبل ذهابه شهادةً لا يزال أثرها في النفوس و(چافير) رجل قد تعالم الناسُ صدقَه ونزاهتَه وإني لملقٍ عليكم بما قال

لست فى حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء بالحجج الملموسة فإنى أعرف هـذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بچان ماتيه) كما يزعم وإنما هو (چان فالچان) ذلك الفتَّاك العيَّار والمجرم الأثيم — سُرِّحَ من السجن بعد أن انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروبَ مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظَهَرَ حائط بستان ، وأكبر ظنى أنه سرق آنيةَ ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة (دنى) وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيامَ كنت أقوم بعمل الشُّرطَة هناك . فأنا به أعْرَفُ من أُمه التى ولدته

وفعلتْ تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، وألحَّ المدعى على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمةً على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو إلا أن غاب حتى فتحَ بابُ

قاعةِ الشهود ورَمى الحضُورَ برجلٍ بين رجلين. واذا الحاجبُ ومعه حرسيّ من الأحراس يقودان (بريقيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاةِ الأشرار وقد كرِهَ الحاجبُ أن يصحبه وحيداً فاستظهر [1] عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تَخفِقُ خفقة قلبٍ واحد

وكان (بريقيه) مجرما عريقاً قد جازَ الستين تلوح عليه سيما الأنذال وتَرِدُ عليك منه سَحْنَةُ المتهالكين على ذات [2] اليد . وهما خَلّتان قد تكون بينهما رَحِمٌ ، وقد غيّرَ منه ما كابده فى السجن من الأذى حتى قال الموكّلون به أن يُريغ [3] أن يكون رجلا نافعاً ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب أن نذكر أن ماظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم إنما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس (بريفيه) إنك رجل قد ركبتَ من المُنديات ما سجّله عليك القضاء ، فأصبحت غيرَ أهل

---

(١) أى استعان (٢) المادة (٣) أي يحاول

للحَلِفِ غير أنك وان جَرّدَتْكَ من ذلك يَدُ العدلِ فقد أَبَتْ رحمة الله أن تُقْفِرَ نفسُك من الشرف والإنصاف، فخبّتها مزْقَةً منهما، فانا أستحلفك بما بقي في نفسك من ذلك الخِبْاء إن كان له كما أرجو بَقِيَّةٌ، وأُريدك على أن تتبصَّر قبل الجواب في هذه الساعة الحاسمة. فكلمةٌ منك تَطِيحُ بحياةِ هذا الرجل وأخرى منك تُنِيرُ لنا منهج العدل ولا يضيرُك أن تخرُجَ من موقفك هذا إذا بدا لك أنك تكن على الحق

ثم صاح بالمتهم أنْ قِفْ وقال (لبريفيه) أنظر اليه واجمع أَشتَات ذِكرَياتِك وانطِقْ بوحْيِ نفسك إذا كنت لاتزال مصراً على أن هذا الرجل لم يكن غير (چان فالچان) رفيقك في سجن تولون

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور إني أول من عرفه فهو (چان فالچان) رفيقي في سجن تولون دخل فيه سنة ١٧٩٦ م وخرج سنة ١٨١٥ م وقد سُرِّحتُ

بعده بعام واحد ، وإنى أراه يَتَبَاله مُنْذُ اليوم . ولعلّ ذلك من فعل السنّ ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الإطراق

فأومأ الرئيس اليه بالجلوس ولَبِثَ المتهم واقفا

وجئ بالمشاهد الثانى (شنديل ديفيه) وكان لايزال فى لباس المجرمين وقد أُشْخِصَ من السجن للشهادة

وكان قصيراً خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثيرَ تجاعيدِ الجبهة ، أصفر اللون ، حادَّ الوجه اذا رأيتَه رأيتَ شبْهَ محموم ، نحيلَ الأعضاء ، مضعوفَ الجسم قد رُكّبَتْ فى رأسه عينان تقرأ فيهما آياتِ القُوّة ، وكان رفاقُه فى السجن يلقّبونه بـ (أُنكِرُ الله)

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألقاها على سابقه وحين ذكّره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حقّ الحلف رفع رأسه وحدّق فى وجوه الحضور

فقال له الرئيس ألاَ تزال مصرا على معرفة هذا الرجل

فقهقه الشاهد وقال كيف لا أعرف رجلا سُلِكْتُ معه فى سلسلة واحدة بضع سنين

وجئ بالشاهد الثالث (كوش باى) وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأَبد وهو فلّاح من (لورد) كان يرعى القطعان فى رؤوس الجبال ، ثم حَالَ الى قاطع سبيل وكان فى معارف وجهه ماينطق بأنه يفوق المتهم بَلَهًا ، وهو من أولئك الذين بُنِيَتْ طبيعتهم بناءَةَ الضَّوارِى فَنَبَذَهمْ المجتمعُ وقذف بهم فى بحور السجون

فحرك منه الرئيس بكلمات قاسيةٍ وألقى عليه قولا ثقيلا ثم سأله السؤالَ المعهود

فأجابَ المتهمُ هذا هو (چان فالچان) وكنا ندعوه لفرطه مُنَّتِهِ [1] (بچان لجريك)

ففعلتْ تلك الشهادةُ فعلَها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوُضُوحُ الذى ألْبَسها لباسَ اليقين

---

(١) المنة القوة

فضاقت القاعة بأهلها وسَرَتْ فيها همساتُ الأسفِ على المتهم ثم جعلت تشتدّ وتمتدّ كلما أُلقِيَتْ شهادةٌ من تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم مُلقٍ بسمعه وهو ساهِمُ الوجه سادرُ النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرّك عند انتهاء الشهادة رأسه ويقول على مسمع الحرس : شيءٌ حسن

فقال له الرئيس : ما قولك ؟

قال : شيء حسن !

فعلا الضجيج فى القاعة وضجّ حتى المحكمون وقالوا هلك والله الرجل

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادعُ الناسَ الى السكينة وعلى أثر ذلك سَرَتْ حركةٌ بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادى انظروا هنا أيُّها الشهود

فملك السامعين الرّوْعُ وهالهمْ ذلك الصوتُ الجهير الذي كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مَصْدَرِهِ فاذا بهم يرون رجلا قد خرج من صفوف الخاصّةِ الجالسين خلف القضاة ووثب الى وسط القاعة . وما هو إلا أنْ تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح اصياحهما عشرون صوتا : السيد (مادلين)

وما كان إلا هو وقد أَضاء وجْهَهُ المصباحُ المنصوبُ على مِنْضَدَةِ الكاتب فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرّق اليه العبث

وكان أصفرَ اللون قد سرت به هِزّة وَحالَ لونُ شعره فقد دخل مدينة (آراس) وشعرُ رأسه أرمدُ [١] فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحدة

فاشرأبّتْ الأَعناقُ وتطلعتْ النفوسُ وشُحِذَ الشعُور ومرّت بأهل القاعة فترةٌ من الحيرة ، وَحُقَّ لهم أنْ يحاروا فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم

---

(١) أي لون الرماد

رجلا هادئ الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع فى نفوسهم أنّ هذا الواقفَ المتمكنَ من نفسه وهو صاحِبُ تلك الصرخة المُرَوّعة

ولم يكن أَجَلُ حيرتهم طويلا فقد اُتّجه الرجل الى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : أتنكرون هذا الوجه ؟

فعل ذلك قبل أن ينْبِس الرئيس بكلمة ، أو يتمكن الحرس من الحركة

فَبُهِتَ الذين شهدوا وأنكروه بإيماءةٍ من الرؤوس ثم التفت الرجل الى المحكّمين وقال : سَرِّحوا هذا المتهم وخذونى فأنا (جان ڤالچان)

فَعُلّقَت الأنفاسُ وأَخذت القومَ رَجَفاتُ الدّهَشِ ثم عَلاَهم خشوعَ البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماويّة فلكهم الفزعُ الأكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائمُ الأمور

وانتشرت على وجه الرئيس طبقةٌ من العطفِ والحزْنِ معاً ، فرمى المدعى بنظرة عَجْلَى وهمسَ فى آذان الجالسين معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : ابغونى طبيبا — وقال المدعى : هذا السيد (مادلين) قد نزل به مانزل وإنا لَنجِدُ [1] له وَجْداً شديدا ونعلم أنه نبيل القدر زكىّ المشاعر ، فاذا رأى الرئيسُ أن يأمر بحمله إلى داره

فابتدر (مادلين) الكلامَ وقاطع المدعى بصوت يمازجه السلطان ونطَقَ بكلمات نُثْبِتُهَا هنا ولا نَخْرِمُ منها حرفا ، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودوّنها على أثر انطوائه ، وقد مَرّ بها أربعون عاما وهى لاتزال فى آذان من بقى حيًّا مِنْ أولئك الشاهدين :

أشكر لك أيها المدّعى فما أنا بمجنون كما تزعمون ، إنكم على وَشْكِ أن تَضِلُّوا ، فسرّحُوا هذا المتهم

---

(١) أى نحزن

وخذونى فأنا المجرم الذى تَنْشُدُون

وليس هنا سواى من ينظرُ بغير غطاء فها كم الحقيقةَ

خالصةً غيرَ مشوبة

إنى وقفتُ هذا الموقف لذات الله العلىّ وهو حسبى

فخذوني . فقد طبت بذلك نفساً

إنى أردت الحسنى فتنكّرتُ حتى أثْريت وأصبحت

شيخا (لمنتراى سيرمير) وألقيتُ بنفسى بين الأخيار فلم

يفسح لى الحظُّ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشياء لا يسعنى

سرْدُها ، فلا أُثَقِّلُ عليكم ببسط ما صنعتُ فى أيام توبى

فإن الغد ببسطه كفيل

إنّى سرقت مولاى العابدَ وسطوت على ذلك الغلام

الصغير فحَقّ لهم أن يَصِمُوا (چان ڤالچان) بأنه فاتك

أثيم وما كان له الخِطْء[1] كلُّهُ وإن كان من الخاطئين —

وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصِبَ نفسه به

---

(١) أى الذنب

لمناصحة الناس ، ولا أ كذب الله ، فإن العار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمراً إدّا

ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شرّ أستاذ فهو يُخبّثُ النفس ، ويمزّق شمل الفضيلة ، ولقد صدق من قال : إن السجون تَخْلُقُ الأشرار

فلقد كنت قبله فلاّحاً فَدْماً (١) فأطلع منى السجنُ شرّيرا وكنت عودا من الحطب فصيّرنى شُعْلةً ، ثم ردّت إلىّ الرحمة ما سَلَبتْنيهِ القسوةُ فنجوت بنفسى ولكن بعد الفوت . فاذا دقّ عن أفهامكم ما أُلقيه الساعةَ عليكم ، فهناك فى رَمَادِ المدْفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام

« وإليك أيها المدعى أسوق الكلام ، إنى ليَعرِض لى أنك غيرُ مُصدّق ، وأقرأُ ذلك فى حركات رأسك ، فأناشِدُك الله ألا تأخذ هذا المتهم . الويلُ لى أليْس هنا من يعرفنى ؟

(١) الفدم الساذج

إني ليحزنني غِياب ُ (چافير) ولو كان حاضراً لوضح الحق »

ليس في طوق كاتب أن يصوّر ما كان في كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنّات الأسى التي كانت تَصحبها عَبقةٌ من الحسنى

ثم انفتل الى الشهود الثلاثة وقال : (بريفيه) ألاَ تزال تنكرني ؟ —

فاعترتْ (بريفيه) الرّعْدةُ وجعل يُصعّدُ فيه بصره ويُصوّبُه ، ومرّ الرجل في كلامه فقال : وأنت (ياشانيلديوه) ألستَ كنت تُدْعى في السجن بـ (أُنكر الله) ؟ ولي فيك آيةٌ

حَرْقٌ بكتفك اليمنى ، حاولتَ أن تمحوَ به الثلاثة الأحرف التي وُسِمتَ بها فلم يُغن ذلك عنك شيأ وثبتت الأحرف في مكانها . أرأيتك ؟ ألَم أقل حقا ؟

قال بلى :

ثم تحوّل ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه

بسمةٌ ماذكرَها رائيها إلاّ وَجدَ لها غمزاً على قلبه ، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظَّفَر ومرارة القُنوط

فَذَهِبَ بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تَخفقُ . فلم تَعُدْ ترى فيها قضاةً ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطاً ولا مدافعين ، وقد أُنْسِيَ كلٌّ غرضَه : نسِيَ الرئيس أنه جاء للرياسة — والمدعى أنه قام للاتهام — والمحامى أنه مَثَل للدّفع — والحرسُ أنهم أُقيموا للحِراسة — فلم ينبِس خَلْقٌ بكلمة ، ولم يفزع ذو سلطانٍ الى سلطانه

ولا عجب فان للمَشاهد السامية خواصَّ تملك عَلَى رأيها المشاعِرَ وتُحيلُ شُهودها الى نَظّارة (١) يَخرجُ بهم فرطُ ماهم فيه عن حدّ الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتي في أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناهُ بأبصارهم ، فهم فى داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون فى خارجهم

(١) المتفرجون

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن (جان فالجان) فأنار ظهوره السبيلَ ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك ذلك الحفلُ الحاشد ما كان من حقيقة الأمر — أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رَجلٌ يفتدى بنفسه رجلا آخر — لله ما أنبل هذه النفس

ثم قال الرجل إننى لا اريد أن أُطيلَ عليكم أمدَ ما أنتم فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذوني — وعندى ما يدعونى إلى الرجوع ، والمدعى العامُّ يعرف من أنا ، ويعرف أين يجدني متى حلاَ له ذلك

قال ذلك وعبرَ يمشى إلى الباب بقدم مطمئنة ، فما رُفِعَ صوتٌ ولا امتدت ذِراعٌ لسدّ سبيله — مشى وقد حلّ فيه خفيٌّ من العناية ما حلّ فى إنسان إلا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت إلى المدعى وقال :

أَنا رهن أمرك . وعطف قائلا :

أيها الحضور ألا تَرَوْن أَني جدير بالرحمة ، ولعلى كلما فكَّرت فى أنى كنت على وشكِ القيام بهذا الصنيع وَجَدْتُنى حقيقا بالغِبطة

ثم خرج فَصَفَقَ(1) البابُ كما فُتِحَ - ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة إِلى أنفسهم ، فأَمر المحكّمون بتسريح (چان ماتيو) فخرج وهو يقول فى نفسه ، ما أَشَدّ جنون هذا الناس ، فأنا لا أكاد أفقهُ شيأ من جميع مامر بى فى هذا الحادث

« عود إلى فانتين »

تنفّس الصبحُ فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت اللّيل كله ، ولَزِمتْها الحمّى فحمةَ ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال

(1) صفق الباب أى رده

آلامها صُوراً من وجوه السعادة بقرب طفلتها — فانتهزت الراهبة نُهْزَةَ نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تُهيّئ لها جُرْعة من الكينا

وبينا هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفقُ على الأرض ضبابا يُقَصّرُ فيه قابُ العين ، وإذا بها قد التفتت التفاتة أَوشكت معها أن تصيح

رأت (مادلين) وهو منها أدنى شىء ، فصاحت : أسيدى الشيخَ أرى

فقال نعم ، وكيف حال المريضة قالت : ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شرًّا ، ثم أَعلمته عِلمها وقالت : ولولا أنَّ فكرةً رفّهت عنها لما طَلَعَ عليها هذا الصباحُ ، فقد حَملتْ غيابَكَ على الذّهاب لِتفقّد طفلتها

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أَن ملامحهُ لم تكن تنطق بأنه قادمٌ من ذلك الوجه

فقال لها أحسنتِ فى تركها على زعمها ، فقالت وما عسى

أن تقول لها اذا رأتك وحيدا ؟ قال إن الله يلهمنا الجواب

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرأت الراهبة فى مادلين ماراءها — رأت شعره الأرمد قد حال كله الى شعر أبيض . فصاحت به أى خطبٍ نزل بك فشيّبك

ثم وافته بمرآةٍ صغيرة كان الأطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدّرها أنفاسه إن كان لايزال حيًّا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال حسن

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلا : أليس من الميسور أن أراها الساعة ؟ فقالت انك لم تأت بطفلتها فخيرٌ لها ألاَّ تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجادّ الساكن : أُريد أن أراها الساعة فربما كنتُ عجِلاً — فلم تفطِن الراهبة لما

كان فى كلمة (ربما) من المعنى الغامض الغريب فَغَضَّت من بصرها وقالت محتشمةً : ليدخل سيدى وليعلم أنها نائمة

فتقدم الى[1] الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنا فى مكانه ، كراهةَ أن تتأذى المريضة بصريره

ثم دخل مخدعها وهو يُخافِتُ من مشيته ودنا من سريرها وفرّج عنها الستائر فاذا هى نائمة

وكان نَفَسُها يَشْخَصُ من صدرها شخوصا يبعث الأسى وتلك آية ذلك المرض العُضال التى طالما فجعت نفوسَ الامهات السواهرِ على أولادهن الذين أبْرِمَ فيهم حكم الموت

وكان هذا التنفّس الشاق يكدّر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها – ذلك الصفاء الذى كان يبدّل فى نومها من مرأى ذلك الوجه – وكان اصفرارها قد بلغ حدّ البياض وأمست خدودها قرمزيةً ، وكانت أهدابُها الطويلة (وهى البقيّة التى بقيت من جمال البكارة والشباب) لاتزال

---

(١) تقدم الى أى أمر

تختلج فوق ذلك الطرْف الساجي

وقد اهتزّ جسمها من فرْعها الى قدمها ، كأنّ أجنحة خفيةً قد رُكبت فيه وأوشكت أن تنشُرَ للطيران . حتى ليُخيَّل للناظر اليها أنه يُحِسُّ ترْويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يُئِسَ منها — فهى الى من يُصوِّع (١) للطيران أقرب منها من يتهيّأ للنزول الى القبر

ألم ترَ الى الغصنِ كيف يضطرب كلما امتدت يدٌ لقطف زهره — ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهو يُعطى ويَمنع فى وقت معاً

كذلك الجسمُ البشرى فقد تنتابه تلك الهزّاتُ حتى تحينُ الساعة التى تمتد فيها يدُ الموت الخفيّة لاقتطاف (٢) الروح

---

(١) صوع أى تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الاعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير في الاسلام فهى عربية بدوية قال الاعشى

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ✲ ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعضُ لأنصاب وجعل يتنقَّل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين، ليلة زارها للمرة الأُولى. وكان المنظرُ واحداً في جميع وجوهِهِ إلاَّ أن شعرَه في هذه المرة كانَ قد عمَّه الشيبُ

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا وأُصبعه على فمه كأنه يأمر أحداً بالسكوت. ففتحت المريضةُ عينيها وسألته سؤال العَطيفِ وهى تبتسم (أين كوزيت)

قالت ذلك وما أخذها دهشٌ ولا استخفها فَرَح فقد كانَت هى الفرحُ بعينه، وعجيب أن يفرح الفرح ألقت هذا السؤالَ (أين كوزيت) وليس فى نفسها ظِلٌّ للشك ولا فى خاطرها جَوْلةٌ للقلق — فألجم اليقين المتجلِّى في ذلك السؤال، لسانَ مادلين فلم يُحِرْجوابا

(١) العطيف الهينة اللينة من النساء

ثم مرّت فى حديثها ! لقد كنتُ عالمة بوجودك رغم
سلطان النوم، وكانت عيناى تتعقبانك أنّى سرْت — رأيتُ
كأنك كنت محلّقا فى سماء من المجد يطيف بك نورٌ سماوىّ
على أنى أُعاودك السؤال (أين كوزيت) لِمَ لَمْ تُنِمْهَا بجانبى
حتى إذا ما فتحتُ عينىّ فتحتها على تلك الطلعة البهيّة

فأجابها بكلام لا يرتاحُ له العقل ثم لم يلبث أن نَسِيَه
على أثر إلقائه

وأغاثه حضورُ الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله
بقوله : اهدئى فان ابنتَكِ هنا

فبرقت عيناها بريقاً أضاء وجهَها وضمت يديها ضمة
تَمَثّلَ فيها أجلى معانى التضرع إلى الله وأحلاها. ثم صاحت
إلىّ بها ، وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تُحْمَلُ - وهْمٌ من
أوهام الأُمَّهات مبعثه العطفُ والحنان

قال الطبيب : لم يَحُنْ الوقت فإنك لا تزالين فى بقايا
علتك ، فلا آمَنُ عليك صدمة اللقاء . فمتى أبلَلْتِ جئناك

بها . فقاطعته بحماسة لقد شفيت و أُعيد عليك القول أنى شُفيت فيالله ما أحمقَ هذا الطبيب فانه يريد أن يحولَ بينى وبين ابنتى

فقال الطبيب أرَأَيْتَ كيف غلَبَ عليك الغضبُ وما دام هذا شأنك فلا سبيلَ الى رؤيتها أو تَملكى صوابَك

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف إنها حمقةٌ أَرجو أن تغتفرَها لى ، ولا تُنزْل أمرى على الجُرأة عليك فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشى علىّ مَغبَّةَ اللقاء فأنا صادعةٌ بأمرك ، صابرةٌ مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت الذى يؤذن لى فيه برؤيتها

على أن رؤية ابنتي لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتى ان أُحدثَها الساعة بعضَ الحديث . لقد رأيت الليلةَ صُوَراً بيضاء ولمحت أُناسا يبتسِمون لى - وها أناذا أستشعر العافية وأحمد الله فقد مسح مابى من الالم .

ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة إمضاءً لأمرك وإرضاء لهؤلاء الأخوات المقيمات هنا حتى اذا آنسوا منى السكينة وتيقنوا من إبلالى جاءونى بابنتى

جلس مادلين على كرسي بجانب السرير فحولت وجهها اليه وهى تغالب كيد الألم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها

ولكنها على تجلدها لم تقوَ على الإمساك عن سؤال مادلين فألقت عليه ألف سؤال وسؤال

لعلها سفرة ميمونة

لله ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلتي

خبرني بربك أكانت جلدة على المسير

أتُراها تنكرنى عند اللقاء فقد طال عهدها بى

إن الأطفال كالأطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ماراوه بالأمس

ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل

لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى أما اليوم

فقد أصبحت بفضل حَدَبِك[1] عليها قريرة العين رخيّة البال

ألا يتسنّى لى أن أراها الساعة

ألا ترى أنها جميلة

ألا تأذن لى برؤيتها ؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذى يأذَن

لى سواك

فأخذ (مدلين) يدَها بين يديه وقال لها : إن (كوزيت)

مثالٌ للصحة والجمال وستريْنَها بعد قليل فاهدئى واستُرى

ذِراعيك بِغطائك عسى أن تخفَّ وطأةُ السُّعال

وكان سعالها يزْحمُ دُفَّاعَه فى حَلقِها كلَّ كلمة من كلماتها

فلم تُبدِ (فانتين) شيئاً من التململ خشية أن تُزَلزِلَ

كلُّ آهة من آهاتها تلك الثقةَ التى تُحاول بثّها فى نفوسهم ،

فجعلت تفوه بأقوال لا تنمُّ على الألم

---

(١) الحدب الحنان

كل ذلك ومادلين ممسكة بيدها ، ونفسه تكاد تسيل جزعا

خرجَ الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيّم عليهم السكوتُ فمزّقته فانتين بصيحة ـ إنى أسمعها ـ إنى أسمعها ـ ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالإصغاء وعلقت أنفاسها وجعلت تتسمّع

كان فى الفناء ولدٌ يلعب ـ وَلدُ البوّابة أو وَلدُ من شئت من العاملات

تلك احدى المصادفات التى مازال الإنسان يَجدها فى ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هى جزءٌ مما تُهَيِّئُه يد الغيب من عُدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

وكان هذا الولدُ صبيةً تذهب وتجىء وتجرى دفعاً لغائلة البرْد وتامّساً للدّفء وهى تضحك وتارة تُغنى — وكذلك كان

وأىّ شىء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لعبِ الأطفال

تلك هى الصبيةُ التى سمعتها فانتين وظنّتها (كوزيت)

وصاحت تلك هى بنيّتى وذلك هو صوتها

وانقلبت الصبيةُ من حيث أتت وغاب صوتها ،

فلبثت فانتين فترةً وهى مُلقية بسمعها ، ثم فارق وجهها

الإشراقُ وقالت بصوت سمعَهُ مادلين : قاتل الله الطبيبَ

فقد حال بينى وبينك

وبعد قليل عاودها أملها البسّام ، فأنشأت تحدث

نفسها ورأسها مطروح على الوسادة

سَنُصْبحُ من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ،

تمرح فيه كوزيت وتجرى على الأعشاب تُطارد الفَراش.

فاذا شبّت وبلغت سنّ التناول [1] ولكن متى تبلغ هذه

السنّ ؟ ثم جعلت تعُدُّ على أصابعها وتقول : إنها اليوم

فى السابعة من عمرها وبعد خمس سنين يكون لها قِناع

أبيض ، وتبدو فى هِندام الفتاة

(١) التناول المقدس أو حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

لله ما أحمقنى فإنى أفكرّ فى الشىء قبل أوانه ثم أخذت تضحك

وكان مادلين يُصغى الى تلك الكلمات وكأنه يُصغى الى هَبا النسيم ، وقد غَضّ بَصَره وغاص فكره فى تأملات لا قرارَ لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبَّه ذلك مادلين فرفع رأسه فإذا بها فى صورة مُرَوّعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفّس وقد قامت فى سريرها نِصف قَوْمَة وبرزت كَتِفُها النحلةُ من قميصها واُصفارّ وجهها ووقفت بنظرها علي مشهد مروّع فى الجانب الآخر من المخدع واتسعت من الرعب حدقتاها

فصاح مادلين ويك ، مابك ؟ فلم تجب ولم تحوّل بصرها ولكنّها مسّت ذراعه بإحدى يديها وأشارت اليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت ، فإذا به يرى جافير

واليك ما مرَّ من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف

الأول من الليل وانقلب الى النُّزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد للسفر ، فأخذ مقعَدَه فيه وبلغ (منترای سیرمیر) قبل الصباح . وما هى إلا أن احتوته حتى أوْدَع صندوقَ البريد كتابا الى (لاڤيد) الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة فى آراس وعاد الحضور إلى أنفسهم ، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المَسّ ، وأصرّ على طلبه وقال إن هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الأيام عن سِرّه لم يُزَلزل من عقيدته ولم يُغير وَجْهَ التهمة المصوَّبة الى (چان ما تييه) . ولكنّ أقواله لم تنزِل من نفوس السامعين منزلتَها . وسقطت الحجّةُ من يده فتلقفها المحامى واطَّرَدَ له القولُ فقال :

لقد انقلب الأمر رأسا على عقِب ، وأصبح المحكمون لا يرون أمامهم إلا رجلا بريئا

وأخذ الرئيس جانب المحامى وانحاز له المحكّمون فسرّحوا (چان ماتييه)

ولم يكن للمدعى بُدٌّ من أحدِ الرجلين ، فطلب القبضَ

على مادلين حين أفلتَه (جان ماتييه) ثم كتب على المكان[1] أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردّد الرئيس بعضَ الشيء ، وكان على طِيبة نفسه وحِدّة ذهنه يتعصّبُ للملكيِة وقد كان مادلين ذكر أمامَه يوماً كلمةَ (الامبراطور) ولم يذكر بجانبها كلمة (بوناپرت) فغاظه ذلك وحقدَها عليه . وذكَرله لشقوته تلك السالفةَ فهان عليه توقيعُ الأمر

وأبرد المدعى به بريداً خصيصاً الى چافير (بمنترای سيرمير) وتقدَّم اليه بالإسراع ، وكان البريد فارساً فذهب يعدو مُرسَل العنان

وكان چافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته كما قدمنا ، وعاد الى منترای سيرمير واتفق ان هبَّ من نومه ساعة وصلَ البريدُ

وكان البريد شُرَطيًّا من حُذَّاق الشُّرْطة فأنهى اليه الأمرَ ، ووَقَفَهُ بكلمتين على جملة ما مرَّ من الحوادث

فقام چافير الى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه

(١) أي في الحال

ولو أن أحداً رآه وهو يَلِج بابَ الدار التى فيها فانتين ومادلين وكَان ممن يجهلون بِناءَةَ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمراً خطيراً قد حرّكه ، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة [١] فقد كان هادئ السعى ساكن النفس باديَ الجدّ وهو يرْقى الدرجَ

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحدُ مُلابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذُعِرَ من رؤيته . فقد كان زِرُّ بَنيقتِهِ منحرفا الى جهةَ الأذُلا اليسرى بَدَلا من أن يكون محرّرا إلى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميًّا فى واجبه ولِباسه الرسمى . فهو لا يترخّص مع المجرم كائنا من كان ، ولا فى إحكام لباسه الرسمى وتَفَقُّدِ أزرارِهِ من جميع ضواحيه

فانزعاج الزِرّ من مكانه حادثٌ لا تأذَنُ له بالوقوع إلا

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر أى محل سقوطه

فَوْرةٌ فى النفس ، كانت أشبه الأشياء بالزّلزال فى الأرض

وكان قد اصطحب أربعة من الجند وكبيراً لهم ، وأمر سائرهم بالتربُّص فى الفناء

ولما سأل البوّابة عن مادلين لم تتردَّد فى أن تَدُل عليه ، فقد أَلِفَت أن يسألها عنه الجنودُ وهم شاكو السلاح

ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعاً ليّناً كانه ممرضة تحرِص على راحة مريضها أو مسترقٌ للسمع

ثم دخل ولو أحسنّا القول لقلنا لم يدخل

فقد وقف فى حَرَم الباب ، وقلنسوته علَى رأسه وأزرار لباسه الرسميّ مطمئنة فى عُراها ، وقد علّق فى أثنائها يده اليسرى وكان رأس عصاه مُطِلا من خلف مرفقه

فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران ، حال چافير وهو جامد فى مكانه الى صورة مفزعة

وما من شعور بشرىّ فى نفس هذا الرجل هو أقدر
على التمثّل فى صورة الفزع من شعور الفرَح وقد طغى عليه
فقد قلب سَحنته الى سحناء مارد يريد أن ينقضّ على طريدته
وكان يقينه من القبض على چان فالچان بعد لأيٍ ، قد
فَضَحَ ما كان كامناً فى نفسه وبَسَطَ على ظاهره ما كان
يضطرب فى زوايا باطنه
وأصبحت الغضاضةُ التى كان يجدها فى نفسه حين
أخطأ ترسّم الأثر ولم يُصب الشاكلةَ فى أمر (چان ماتييه)
وقد محاها زهوٌ دخل فى نفسه حين علم أن فِراسته لم تخطئ
وأن شعوره لم يَخنه فى تعقّب چان فالچان
وتجلّت فى جبهته الكريّة دمامةُ منظره عند ظفره ،
فكان ذلك أبينَ ما يقرأ من آيات الشناعة فى سَحنة بلغت
مناها
وفي هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفَلَكُ وناجاه
المَلَكُ ، لا يشعر بحقيقة موقفه حقّ الشعور ، لكنّه لم يخلُ

من شعور مبهم بنُجحه وضرورة الحاجة اليه

فقد كان يمثّل فى ذات نفسه تلك القوات العُلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهى تعمَل متساندةً على سحق قوّة الشر

فكان كأنه يُحِسّ أن حواليه مدى لا حدّ له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والإيمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرَم والقصاص الاجتماعى ، وكل ما فى ذلك الفَلَك من قوّة

ولا عجب فقد كان يحمي النظام ويستنزل صواعق القانون وينتقم للمجتمع وينفّذُ المشيئة ويُمضِى القدر وينهض فى المجد نهوضا

ولم يَخذُلْ نصره وإن كان مبينا من بقية للتحدّى والكفاح

وقف فى أوج السماء مشرقَ الوجه مزهوًّا وقفة جبّار من طواويس الملائكة تجلّت فيه بَهِيمِيّة [1] دونها بهِيمِية البشر

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لائمة الكتاب فى الفلسفة والاخلاق والادب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعيه فقالوا بهيمية وطبيعية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال أن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة باذن الله

وما أَخذته عينٌ وهو يزاول أعماله المخيفة ، إلا أخذها من خلال ظلالها بريقُ سيف الاجتماع وهو يلمع في قبضته

وكان يشعر بسعادة في استنكار ما يرى ، وقد وطئ باخمصيه هامَ الجرائم وقيَّدَ بعقبيهِ العصيانَ والفساد والشرور وكان يتفجَّجُ نوراً وهو يستأصل من الفساد والشر

وقد تجلّت في تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظمةٌ لا يختلف فيها اثنان

ولم يَعلَق بهذا الرجل المخيفِ دَنَسٌ ولا طارت حوله دَنيَّةٌ

إن الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثّل الواجب ، كلٌّ أولئك الفضائل إذا حادَ بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك في صُورٍ منكرة ، ولكنّها على نُكرِها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

فإجلالُ تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشريّة

إن لكل شيء آفة ، وآفةُ الفضيلة ، العدولُ بها عن القصد

للمتعصّبِ في دينه وهو في عنفوان فورته فرحٌ شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة ، يلازمه ما أدرى أى لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

وكان چافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها — وكذلك الجاهل إذا فاز — فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه الذى تجلّى فيه كلُّ ما يمكن أن يكون في طيّبٍ من خبيث

*
* *

لم تكن فانتين قد لمحت چافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها المضعوف على إدراك شيء . غير أنها لم تَخلُ من الشك فى أمره لغشيانه

مخدعها . وكان أكبرُ ظنها أنه إنما أتى يريدها . فخانها العزم
ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر ، وأحسَّت
الحَيْنَ ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس :
نَجِّنى منه . فأجابها بصوت يَقْطُرُ سكينة ورقّة

إهدأى أنت فإنه إنما جاء يريدنى

ثم التفت إلى ڇافير وقال له : إنى لأعلم ما تريد

وصاح به ڇافير

إذاً فهيا

نطقها بوحشيّة زحمت فى حلقه مخارجَ الأحرف
وطمست على معالمها فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام

ولم يجرِ ڇافير على الطريقة المألوفة فلم يُفِضْ معه
فى حديث ولم يعمِد إلى ابراز أمر الاستدعاء

فقد كان يَعُدُّ ڇان فالڇان محاربا خفيا يُفْلِتُ كل من
قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام فلبث خمس
سنين يجالده ويصارعه فلم يَقْوَ على صرعه ، ولم يكن أمر

القبض بدءَ ذلك العراك ، ولـكنه كان الختام ـ فمازاد على أن قال له : إذاً فهيّا

قالها ولم يَخْطُ خطوة ولـكنّه ألقى على جان فالچان نظرة كَالمِحْجَنِ[1]

تلك النظرة التى اعتاد أن يجذب بها اليه جذبَ العُنف أولئك المنكودين من البائسين

تلك النظرة التى نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين

وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها فرأيت مادلين بحيث كان ، فَشَدّ ذلك منها بعضَ الشيء ، ثم أجالت تلك المسكينة نظراً حائراً فلم ترَ فى المخدع غير مادلين وغير الراهبة ، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها

رأت فى تلك اللحظة شيئاً غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها ، رأت عينا[2] من الشرطة يُلبّب[3]

---

(١) المحجن آلة يجذب بها الشيء كالخاطوف وغيره (٢) جاسوس (٣) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه أي يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا

شريفا من سروات الناسُ ، والعينُ شامخ الانف والشريفُ منكّس الرأس

فخيّل إليها أن الدنيا قد شمّرت للزوال

وكان چافير قد أخذ فى الحقيقة بتلابيب (چان فالچان)

فصرخت فانتين : سيدى الشيخ

فضحك چافير حتى بدت نواجذه وقال : ليس هنا مَن يُنادَى بسيدى الشيخ ، فلم يعالج چان فالچان أو يزحزح عن خناقه يَد جافير ، ولكنه قال له : جافير ، فقاطعه جافير قائلا :

قل سيدى المفتش ، فقال له

سيدي إن لى معك كلاما

فقال له

ارفع به صوتك فكذلك أُكَلّمُ

قال إنه رجاء

قال له اجهر بصوتك كما أمرتك

قال : إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك

ثم داناه وألقى فى أذنه : أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية هذه المسكينة وادفع لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك أن تصحبنى إذا شئت

فقال چافير أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمقاً

وسقطت تلك الكلمات إلى أذن فانتين فاضطربت فى سريرها وصاحت : ويلاه أليست بنيتى هنا كما يزعمون ؟ ثم صاحت أيتها الأخت أين بنيتى ، وأنت أيها السيد مادلين ؟

فضرب چافير برجله وصاح بها ، إياك أن تنبسي أيتها الشقية

أرانى اليوم فى بلد ينادى فيه المجرم بألقاب التسويد وتكرم فيه البغى كأنها من فضليات الحرائر

ثم نظر إلى فانتين ، ويده تريد فى تضييق الخناق على (چان فالچان) وقال لها : ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا

سيد وإنما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى چان فالچان ؟

فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من چان فالچان ، الى الراهبة ، الى چافير ، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شىء حوله ، ثم هوت على الوسادة فصدم رأسها سناد الوساد — وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع چان فالچان يده على يد چافير وهى ممسكة بطوقه وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : لك الويل ، لقد قتلتها

فصاح به چافير دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق ، فإن لم تنطلق معى فليس إلا القيد ، وإلا دعوة الجند

وكان فى إحدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح اليه الرهبات فى السهر ، فاندفع اليه چان فالچان

وانتزع فى أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه فى مكانه ، وأى شىء يتعصّى على تلك السواعد . ثم اتخذ منه جُنّةً وسلاحا ولوّح به فى وجه چافير ، فتراجع مذعورا إلى الباب

ثم مشى به مِشية المطمئن الى سرير فانتين ولما بلغه التفت الى چافير وقال له : أنصح لك ألا تدانينى

فأوجس چافير خيفة ، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند لكنّه خشى أن يجد جان فالچان نُهزَةً للفرار فأسند ظهره الى عُضادة الباب ، ونظرُه مصوّب الى غريمه

فارتفق چان فالچان على قمة السناد وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ، ولبث غارقاً فى تأملاته . وما كان ليُفكّرَ فى شىء من أشياء هذه الحياة ، غير أنك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة

ثم انحنى فوقها وجعل يسارُّها — ترُى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل المُمتحَنُ لتلك المرأة الميتة

لم يَقَعْ ما قال فى أُذنِ الحىّ فهل وقع فى أذن الميت

وما يدريك لعل فى الأوهام المؤثرة شيئاً من الحقائق السامية

روت الراهبة ، سامبليس ، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فى ما تروى — أنها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارّة بسمة قد خَطَفَت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الأحداق ، التى غمزتها دهشة أهل القبور

ثم أخذ فى يديه رأس فانتين ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الأم رأس طفلها وأَغمض بعد ذلك عينيها ، وقد علا وجهها إشراقٌ سماوىّ — والموت انتقال من عالم الظلمة الى عالم النور

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبّلها ثم التفت الى چافير وقال له دونك ما تريد

سيق مادلين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله في أنحائها ، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض يتساءلون . وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه ، وقطعوا بإجرامه قبل أن يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث (بآراس)

فمضى النهار وما تكاد تسمع في مناحي المدينة إلا هذا اللغط

ألا تدرى ؟ — أنه مجرم سُرّح بعد العقاب — من هو ؟ — شيخ البلد — ويحك ماتقول ؟ السيد مادلين ! — نعم — لا تقل هذا — إنه لم يكن يدعى مادلين — إن له اسما آخر ، لله ما أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! (جووان) !

وهل اُعتقل

نعم

أَفى السجن ؟

فى سجن المدينة ويُتَوقع نقله وإشخاصه الى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعُبَّد فى عهده الأول

إنى لا أَسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبا كاملا وكان من الزاهدين ، أَلم تر كيف تأَبَّى على وسام الشرف يوم أُنعم به عليه ؟ أَلم تقع عليه عينك وهو يوالى إسداء الحسنات ؟ فما سأله سائل إلا أَعطاه ، ولا مرَّ بمُعدم إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه

لقد كنت أَلمح من وراء تلك الأعمال ماضيا غير محمود.

وقالت عجوز من المشتركين (١) فى «علم (٢) السلام».

لم يُثِرْ هذا النبأ فى نفسى حزنا على ذلك الرجل — إن

---

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعا للافصح قال الله تعالى « وكانت من القانتين »

(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد

فى هذا لبلاغا لاولئك « البونابارتيين [١] »

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبحُ مادلين من الأذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها إلا ثلاثة أو أربعة منهم بوّابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم

وقد أُقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة (پرپيتى) وأُختها (سامپليس) كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

وعند الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة الى داره قامت البوابة وأخرجت من دَرْج لها مفتاح باب مخدعه وعلّقته فى مسمار مرشوق بالحائط ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود ، كما كانت تفعل فى كل مساء ، ثم أخذت فى التفكير

---

(١) نسبة الى بونابرت (نابوليون)

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة

ومرّ بها ساعتان وهى على تلك الحال ثم عادت الى

نفسها ولم تنشب أن صاحت

إلهى من ذا الذى علّق هنا هذا المفتاح

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فُتح زجاج النافذة .

وامتدت يدٌ من فرجته فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان

فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها

صيحةٌ .

انها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم

يكن كُمُّ ذلك الرداء عنها بالغريب

إنه السيد مادلين — فمرّ بها بضع ثوان وهى معقودة

اللسان (كما حكت عن نفسها) وهى تروى ذلك الحادث —

ثم انحلت عقدته فصاحت : سيدى الشيخ لقد ظننتك ....

ثم أمسكت عن الكلام كراهةً أن يبدر منها ما يكون فيه

تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيما فى نفسها

فأسرع مادلين وأتم لهـا جملتها فقال : — فى السجن

نعم كنت فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هناك ، وها أنذا كما ترين أعود الى مخدعى ، فاذهبي أنت الى الراهبة (ساميليس) وقولى لهـا إنى فى حاجة اليها

فانطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشىء ، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه

ولا يعلم خلق كيف خلص هـذا الرجـل الى ذلك الفناء وهو لم يُعْمِل فى الباب الكبير مفتاحاً

لقد كان يكون معه المفتاحُ (القلّابة[1]) الذى يستخدم لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن ويُنزع منه مايحمل من أداة . فهل عَمِيَ الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح — لقد لبث هـذا الأمر غامضاً

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذي يفتح جميع الابواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد
فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب ألسنة جميع الاقفال

صعدَ في الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا ، وفتح باب المخدع بلا تحرُّج فصرَّ الباب صريراً ولكنه لم يباله ، وولج في الظلام

وجعل يتقرَّى بيديه ويتلمَّس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم إغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مُطلة على الطريق

ثم ألقى نظرة عَجْلى على ما في ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غيرُ قطعة الغلام وقداً سودت من النار وغيرُ بقايا عصاه

فأخذ بيضاء خطّ فيها هذه الكلمات : —

ها كم بقية عصاي وقطعة الغلام الفضية التي ذكرتها أمام المحكمة

ثم لفّهما في تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عينُ الداخل

ولفّ بقايا الشمعدانين فى خِرْقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسا . وكان يمضغ كِسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فُتَاتة على بلاط المخدع ، وجَدَهُ المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اُختفائه .

طُرِق عليه البابُ فأُذن للطارق ، فدخلت الراهبة (ساميليس) وهى صفراء اللون محمرة الحدق

ولا يسلم المرء وإن كان جَلْداً صبورا من أن يتسرب اليه الوهَنُ أمام بأس الأقضية والمقادير

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردّت الرهبة الى طبعها من الضعف والخور فجَزِعت وبكت ، وكذلك تبكى النساء

فمدّ لها (چان فالچان) يده بورقة وقال لها : أيتها الأخت أرجو أن تحملى هـذه الورقة الى القسّ ، وكانت الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها : لك أن تقرئى ما فيها

فقرأت — أرجو سيدى القسّ أن يقوم على ماخلّفته هنا من المال ، وأن يُنفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا اليوم ، وأن يرصُد ماتبقّى للفقراء والمساكين

حاولت الراهبة أن تنطق نخانها النطق ثم تمكنت بعد الجهد من أن تقول : —

ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزوّد من تلك البائسة بنظرة الوداع

فأجاب مادامين إنهم على أثرى وربما أدركونى هناك فعكروا عليها صفو نومها الأبدىّ

وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدّرج

وسرى اليهم صوت البوّابة وهى تقول : —

أقسم بالله أن أحداً لم يدخل ، وأننى لم أرِمْ مكانى من الباب بياض النهار وسواد الليل — وسمعوا صوت رجل يقول : وماهذا النور بالمخدع ، فعرفوا منه صوت (چافير)

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاويةَ اليمنى من ذلك المكان فأطفأ چان فالچان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة — وفُتحَ الباب وظهر چافير على العتبة — وجعلت الراهبة تصلى وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة فلمح چافير على ضوئها الضئيل تلك المصلّية، فَسُمِّرَ فى مكانه

وچافير كما تعهد، بما بُنِىَ عليه طبعُه وبما كَسَبَهُ من البيئة التى يعيش فيها والمضطرب الذى يتقلّب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة فى شتّى مظاهرها. فهو يُعظِّمُ سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، ويُنْزِل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ والراهبةَ منزلة المعصوم من الخطيئة

تلك أرواح مُسَوَّرَةٌ فى هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتَخرُج منه كلمة حقّ

ولما لمح چافير الراهبة همّ عند الوَهْلَةِ الأولى

بالانصراف . ثم ذكَرَ واجبَ مهنتهِ فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأةُ صدقٍ ، ومكانها من نفسه مكانُها

أيتها الأخت :

هل أنت وحدك فى هذا المخدع ؟

فرفعت عينها وقالت :

نعم —

فقال چافير :

اُعذريني على هذا الإلحاح

ألَمْ ترَىْ رجلا فى هذه الليلة فإنى أتعقّب مجرما يدعى (چان فالچان) قد فرّ من السجن

قالت :

لا

فانحنى چافير وسلم وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق مايكون

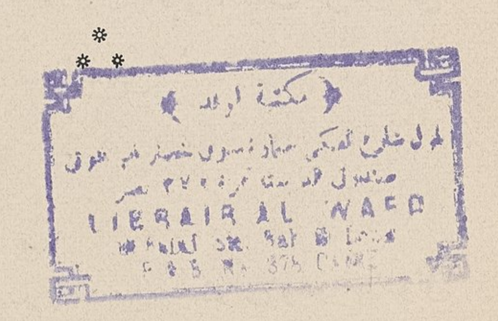
كذبت الراهبة ثم كذبت :

كذبت مرتين على التعاقب

إيه أيتها العذراء الطاهرة . إنك لم تكوني من أبناء دنيانا

وقد مرّ بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى ، والأطهار من إخوتك الملائك ، ولسوف تُسألين عما جرى على لسانك من الكذب ولكن فى دار النعيم

*
* *



وبعد هذا الحادث بساعة أو شيْعِهَا [١] رؤِىَ غير رجل يُهرول بين الشجر وقد ركب طريق باريس ولم يكن (چان فالچان)

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعلّه رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام. وقد آن أن نُشيِّعَ فانتين بكلمة

إن لنا أُمًّا واحدة

هى الأرض

وقد رجعوا فانتين إلى أُمها

وقال القَسُّ:

ليس من البرّ أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغىّ ولكنَّ البرَّ أن أرصده للنفقة على الفقراء والمساكين، ثم تجوّز [٢] فى دفن تلك البائسة وألقى بها فى مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات:

---

(١) قريبا منها (٢) تساهل

رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التي لم تكن لأحد
وهى لكل أحد

وذهبَتْ روحها إلى مقرّها ومستودعها وسبحان من
يعلم وحده أين ذلك المستقَرّ

وهكذا أُنيمَتْ فانتين فى ظلمة تلك الحفرة وانطوت
فى رَمادِ تلك الأمشاج ، فكان لحدها أشبهَ شيء بسريرها .





مؤلفات ابراهيم زيدان

وهى تطلب من مكتبة الهلال بشارع الفجالة بمصر

مليم	قرش	
٥	١	الطريقة المبتكرة لتعليم القراءة العربية مشكلة ومزينة بالرسوم أول
	٣	« « « « « « « « ثانى
٥	٤	« « « « « « « « ثالث
	٦	« « « « « « « « رابع
٥	٧	« « « « « « « « خامس
	١٠	مبادئ الحساب ٤ أجزاء
٥	١٢	الجغرافية الابتدائية مزينة بالرسوم ٤ أجزاء
	٦	مبادئ الهندسة « « جزان
	٨	دروس الأشياء « « «
	١	المبادئ الانكليزية على أسلوب جديد
٥	٧	تحويل العملة المصرية والفرنساوية والانكليزية والسورية والاميركانية
	٦	سرائر العشاق ، وهى رواية غرامية أدبية

مؤلفات أخرى

قرش	
٢٥	محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للاصبهانى
٢٠	ألف يوم ويوم مزين بالرسوم تعريب وهبه منصور
١٢	الاجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران
١٢	الارواح المتمردة « « «
٦	عرائس المروج « « «
٦	فلسفة الحياة لتولستوى
٤	السلطة والحرية «
٤	كلمات الفلاسفة لبباوى غالى
١٠	علم التنجيم بالطرق العلمية الحديثة مزين بالرسوم
١٠	الانشاء العربى لابراهيم عبد الخالق

